تالا

"نسق"

فلسطين – نابلس – شارع تونس

بجانب مسجد أم سلمة

تالا

" مجموعة قصصية "

المفكر الإسلامي
محمد نبيل كبها

الطبعة الأولى

٢٠٢٥م

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer

جميع الحقوق محفوظة، يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلّف.

إهداء

اليوم أخبركم أني أحبكم، اليوم أنزع بحروفي هذه عني رداء الكهولة وألبس كنزة الطفولة لأكون اليوم فراشاً أتنقل بين أحضان أربعة عشر زهرة...

نبيل محمد نبيل كبها

تالا محمد نبيل كبها

كريم محمد نبيل كبها

عزالدين عبدالرحمن نبيل كبها

عمر عبدالرحمن نبيل كبها

رفيق محمود كبها

رنيم محمود كبها

يامن قبال بسيس

مصطفى قصي حجيجي

ألين قصي حجيجي

ماسة قصي حجيجي

جوليا قصي حجيجي

ليث مثقال ياسين

ليلى علي نبيل كبها

شكر خاص

أتقدم بجزيل الشكر لكل من شارك في كتابة الفصل الأخير "التشاركي" في كتابي ومجموعتي القصصية من أدباء وكتاب وروائيين وعامّة في فلسطين وحول العالم العربي.

ميَّادة مهنَّا سليمان - سورية / دمشق
ختام خالد كفاية - الأردن / الزرقاء
مي سليمان - السعودية / الرياض
أسيل محمد - فلسطين / بيت لحم
رنيم محمود رفيق - فلسطين / جنين
دانية - فلسطين / نابلس
حنان كامل خروب - فلسطين / قلقيلية
نبيل محمد كبها - فلسطين / رام الله
سماح عزام - فلسطين / ضواحي القدس
علي نبيل كبها - فلسطين / جنين

قصص واقعية

من حياتي

الإبتسامات الحقيرة

هناك من أيقظ غضب هذا الشيطان لأنه تجرأ على دخول كهفه، إنه مخلوق عملي، ينحت أعماله بكل براعة، كهنيبال تماماً، حيث كان هنيبال لا يترك دليلا ورائه، فقد كان يأكل الأدلة، يأكل لحم البشر الذين يقتلهم، فكان يقطعه الى قطع صغيرة ويغليه أو يقليه أو يشويه، ثم يأكله؛ ولكن المصيبة ليست مع هذا الشيطان، بل مع تلك الصور التي تجمعني مع أصدقائي ونحن نبتسم على رف مكتبتي، لأنني لم أكن أعلم ماذا يختبئ ورائها، ولكني كنت أشعر أن خلف تلك الابتسامات الحقيرة سكين هنيبال.

هناك فرق كبير بين أن تولد في عائلة أو أن تصنع فيها، وليس كل من هو في عائلة سعيد أو يحبها، فأحياناً لا يكون الرحم مكانا آمنا دوماً، لأن أجنة أسماك القرش تفترس بعضها داخل هذا الرحم، إن قتل الأخ كقتل النفس، ونحن ضحايا لمن نحب، ولكنها الدنيا التي قتل فيها قابيل أخاه هابيل.

لقد اعتدنا على مشهد القاتل الذي قتل أخاه ثم حضر جنازته، والمعلوم للجميع أن الشرطي أو الطبيب أو المسعف يصل إلى ساحة الحدث بعد انتهائه وفرار القاتل.

وبعد أن بلعت الأرض في بطنها هذه الجثّة المقهورة، عاد الطبيب لمغازلة الممرضة، وعاد الشرطي لتصوير النجوم على كتفه، وعاد القاتل إلى المشهد مرة أخرى للبحث عن ضحية جديدة.

رأيت الأرض

في إحدى أيّامي الغريبة والعجيبة والتي أخرج فيها عن الواقع، وأكون فيها كما لو أنني داخل فيلم سينمائي حُبكت أحرفه بدقّة وإحكام، استيقظت على نغمة حزينة كان تخترق زجاج نافذتي، وأنا بطبعي أعشق الحزين من اللّحن، فجلست على حفّت سريري أستمع لها، وإذا بهذه النغمة تجرّني نحو النافذة.

وقفت أمام النّافذة ثم نظرت من خلالها كي أتتبع مصدر هذه النغمة، لأرى عجيبة من العجائب**!** أتعلمون ماذا رأيت؟ رأيت الأرض، ولكن وجهها لم يكن أزرق اللون، بل رمادي باهت، ورأيتها تتشكل بأيدي مهندسين على هيئة البشر، ولكنهم ليسوا ببشر.

كانوا ينحتون كرة في قلب تلك الكرة -يشكلّون عالماً داخل هذا العالم- وعندما فرغوا منها رشّوها باللون الرمادي.

بعد أن انتهوا من طلائها زرعوا في تربتها كل أنواع الفحش والفساد، وسقوها بالدماء، ثم أطعموا جميع السكان منها.

كان الناس وكأنهم ملسوعين في عقولهم، ويتخبطون كالشياطين، ولا وجهة محدّدة يسيرون فيها.

وكان هناك رجل يجلس على كرسي من ذهب وياقوت، ينظر إليهم من خلف تلك المرآة، ينظر إلى هذا العالم الرمادي الخاص به والخالي من المتضادات.

إنه عالم الرجل الجالس خارج اللعبة، ويتحكم بها من بعيد عبر الريموت كنترول، فبكبسة زر واحدة كان يقوم بغزو النّاس عبر المفاهيم، حيث يحتل عقولهم ثم يغيّر المفاهيم.

إحذروه، فهو كالثعبان، يغيّر جلده في كل زمان ومكان وعصر، ولكنّه ما زال ثعبان.

شيخكم الفاضل

تمت دعوتي بوجه خاص من قبل مجموعة من المشايخ ورجال الدين للمشاركة في إحدى الندوات الدينية، حيث كان ملتقى ديني كبير في إحدى المراكز الدينية والثقافية الكائنة في إحدى المدن الفلسطينية، فلبيت الدعوة.

عند وصولي رحّبوا بي جميعاً، وجلسنا داخل المركز، وكان بينهم شيخ معروف محليّاً يعمل كإمام لمسجد وخطيب له، بالإضافة الى كونه داعية إسلامي يعطي الدروس والندوات والمحاضرات الدينية.

بدأ البرنامج الديني، فصعد هذا الشيخ المعروف ليفتتح الأمسية الدينية بخطبته العصماء، وكنت أنصت له وأنا أغلي كالبركان وأفقع كحبات البوشار، حيث أن هناك مسخ صهيوني يبتلع الأطفال والصبيان والنساء والشيوخ في غزة، بينما عطوفته لم يتطرق في خطبته إلى ذكر أي شيء عن هذه الحرب الهمجية والبربرية -السابع من أكتوبر- ولو حتى بالتلميح!

كما أن خطبته لا ترقى لمستوى طالب مدرسي بالصف الأول، وكانت طويلة جدّاً كمركبة لا يوجد فيها كوابح لكي تتوقف، مما دفع البعض إلى التذمر والضجر، حتى أن الشخص الذي يجلس أمامي أخذ يتأفّف ثم طالب الشيخ صراحة بالتوقف، وللصدفة تزامن إنتهاء خطبته مع فاصل إستراحة.

هبط هذا الشيخ المُبجّل من على ظهر المنبر، ثم اتجه نحو إحدى البسطات ليشتري بعض الخبز والشاي، وخرج بصحبته العديد من المدعويين من الدعاة والمشايخ والعلماء.

أما أنا فلم أبرح مكاني، حتى تم إحراجي من قبل أحد المشايخ الذين استضافوني كي أشاركه كوبا من الشاي، فذهبنا معا، وأثناء شربنا له سألني هذا الشيخ: "لماذا لا أراك ترتاد مركزنا إلا إذا دعوناك؟ وحتى لو دعوناك فإنك غالباً لا تلبي ندائنا؟!"، فأجبته: "اني مشغول ومنهك في تحصيل العيش لزوجتي وأولادي"، فرد علي: "لا بأس يمكنك المجيء متى أردت"، فقلت له: "شكراً"، ولكني كنت في نفسي أقول: "لن أكررها البتّة، فهناك في غزة سفينة تحمل في بطنها مستقبل هذا الكوكب، وشيخكم الفاضل يحدثنا عن فضل الصلاة والصيام والقيام!!".

وما هي الا بضع دقائق حتى تجمع حولي مجموعة من المشايخ الذين يتابعونني للإستفسار عن بعض المسائل العلمية، فأجبتهم بالحجج والبراهين وكانوا سعداء، وبعد وهلة جاء أحد المشايخ ليسمع رأيي في خطبة أميرهم وشيخهم السابق ذكرها، فأجبته: "لست مهتم ولا أكترث لخطبة صاحب الفضيل، كما أنني لست مهتما برأي أي شيخ أو مفسر أو داعية أو عالم على هذه الأرض المهجورة، لقد أخبرتمونا منذ عهد النبي أن هذه الأرض هي جنة المؤمن، وأن الناس هم أخوة، وأن رجال الدين هم القدوة، ولكني في هذا التاريخ -السابع من أكتوبر- وبعد أن فاق عدد الشهداء في غزة ال ٤٠ ألف، أدركت تماماً أن الأرض هي الجحيم، وأن الناس مُخدّرين، وأن المشايخ منافقين.

أنا المسيح

ذات يوم بعثت أسأل خلف أحد الحرفيين لأكمل بعض الأعمال في منزلي، دلّني الجيران على أحدهم، اتصلت به، فأجابني وكان يبدوا عليه من صوته أنه في الأربعين من العمر، وبالفعل عندما حضر إلى منزلي كانت التجاعيد تغطي وجهه، والشيب يشتعل في رأسه.

أخبرته بأعمال الصيانة المطلوبة منه، وبدأ هو من جهته بالعمل فوراً، كان هذا الحرفي يختلف عن جُل من جمعني بهم العمل في منزلي، حيث كان معظمهم يحبّون التحدث والثرثرة أثناء العمل، إلا هذا الشخص الغامض، لقد كان طويل الصمت، وفي وقت استراحته يُجل النظر في السماء ويتمتم معها.

حاولت أن استدرجه بالحديث كي أستخرج المدفون فيه، ولكنه كان يجيب على قدر السؤال، عاودت كالمحموم مراراً وتكراراً أفتش عن منفذ في بطن هذا الحرفي، فلمحت في طيات محاولاتي أنه يهوى الحديث في مجال اللّاهوت، ولكنه كان يمنعُ نفسهُ من الخوض فيها معي، فينسحب ويظل واجماً.

لعبت معه بأسلوب سقراط عندما كان يستفز تلاميذهُ بالسؤال، وأثناء تطوافي الطويل معه بالإستفسارات حول اللّاهوت، وإذا بكلماته تخرج من فجاج طينه وتكسر صمتهُ.

تبادلنا الحديث لساعات طويلة، وقبل أن تنطفأ الشمس نظر إلي نظرة حزينة وقال لي: "لو بُحت لك بسري هل ستبقيه سرّاً، أم أنك ستسخر مني كما فعل غيرك؟"، فأجبته: "بالطبع لا، وهل مشاعر الناس ووجداناتهم محل للسخرية!"، تعجّبت منهُ ثم ربتّ على كتفه وقت له: "ولماذا تفترض أن أسخر منك!"، فآجابني بحزن: "لأن هذا ما سيحدث، فبعض الكلمات لا تصدق، وبعضها لا يقع حتى في الخيال"، ثم أخذ شهق طويلا، وأطلق زفرة عميقة، ثم تأوّه، وقال: "آآآآآآآآآآآآه، أنا المسيح".

كان حالي عندما رنت هذه الكلمات -أنا المسيح- في أذني تماماً كشخص ضرب عقلي بمطرقة كبيرة! فنظر إلي هذا الحرفي نظرة كريهة وقال لي: "ها... ستسخر مني أم ماذا؟؟؟"، فعدت إلى رشدي سريعاً، وكتمت مشاعري وتحكمت بها، وأجبتهُ وأنا مصدوم: "لا....لن أسخر منك".

أطلت النظر في عين هذا الحرفي ثم سألته: "أتقصد المسيح ما غيره!"، فقال لي: "نعم، أنا المسيح ما غيره"، فزدت للتأكيد وأنا مصدوم: "المسيح المسيح... عيسى بن مريم؟!"، فردّ علي بكل ثقة: "نعم... أنا المسيح -عيسى بن مريم- هو هو بعينه ولحمه وشحمه".

سألتهُ: "وكيف أنت المسيح وقد رفعه الله إليه منذ آلاف السنين؟!"، فأجابني: "إن كل ٤٠ عاماً يرسل الله من يجدد هذا الدين ويحمله، ويكون ذلك من خلال المسيح، حيث يبلّغ الله أحد الناس من خلال صوت يسمعه أنه المسيح، وعليه أن يبلغ الرسالة والدين، ولقد سمعت في صحوتي صوتاً هبط إلي من السماء ثم وقف إزاء أذني وأخبرني أنني المسيح".

صدقاً... لقد صفعتني هذه الكلمات على وجهي، وصمتّ طويلاً كما تلك الجثث في قبورها، وصرت أقول في نفسي: "لقد تعبت من مخاطبة الأحياء منذ زمن، وها أنا اليوم أخاطب الأموات!! ياليتني لم ألح في السؤال مع هذا الحرفي! يا ليتهُ ما نطق! إنّ الصمت أفضل من الحديث على كل الأحوال".

ثم حاسبته وغادر منزلي.

العاتول أوبتيموس

معظم عقول رجال الدين الإسلامي من مشايخ وخطباء ودعاة ومفسرين ومفكرين وفقهاء وعلماء أنهكتهم الحرب الدينية فيما بينهم، فمزقوا الخطاب الإسلامي وانقسموا إلى فرق وطوائف وأحزاب، ليواجه المسلم المسكين في القرن الواحد والعشرين خطر انهيار عقيدته وسلامه الداخلي وسكينته.

وإبان ذلك كله يلتوي وينبعج وينطوي وينتهي الخطاب الديني الإسلامي على يد هؤلاء وسطحيّتهم الفكريّة وعدميّتهم المعرفيّة "إلا من رحم ربي منهم"، فترى إحدى هؤلاء المشايخ يجلس مقرفصاً في إحدى المساجد ويلقي درساً للعامّة، يتحدث عن الذرّة ويسقطها على إحدى الآيات الكونية في القرآن الكريم، وإذا به يسأل: "مِمَّ تتكون الذرّة؟!"، ليتضح أخيراً أنه لا يعلم شيئاً عنها أو عن مكوناتها، فضلاً على إسقاطها على آيات وكلمات الله دون علم ودراية ومعرفة في علم الذرّة، مِمَّا جعلهُ سخريّة الحاضرين وكل مَن شاهد على مواقع التواصل الإجتماعي.

في خضم هذه الفوضى كلها كانت لدي محاضرة علميّة، فقلت للمستمعين ما يلي: "كما يعلم الجميع أن الدول العربية والاسلامية منشغلة بأمور لا علاقة لها بالصناعات وخاصّة الآلية والرقمية، لذلك أطلق علينا الغرب "دول العالم الثالث"، في المقابل قامت الصين بصناعة الروبوت الآلي، وليس هذا فحسب بل إنها قامت بإدراجه رسميّاً في عام ٢٠٢٤م للعمل مع الإنسان ومساعدته في القيام بأعماله، فقامت بصناعة روبوت خاص بالحدادة، وآخر بالنجارة، وآخر للبناء، وآخر للغسيل"، وأثناء حديثي إلى المستمعين أعادتني الذاكرة الى عام ٢٠٠٤م.

قبل حوالي ٢٠ عاماً شاهدت إحدى أفلام الخيال العلمي بعنوان "I, Robot" والذي أنتج عام ٢٠٠٤م للمخرج (أليس برورياس) حيث قام بآداء دور الشخصية الرئيسية فيه الممثل والمنتج الأمريكي (ويل سميث).

يتحدث الفيلم عن صناعة وثورة الرجال الآليّين، وأن الروبوتات أصبحت جزء لا يتجزء من حياة الإنسان، حيث عرض الفيلم وجود روبوت في كل بيت، وكان هذا الروبوت مُعد لوظيفة معينة، فمنهم كان لرفع الأشياء وجلبها، ومنهم للتنظيف والتكنيس والغسيل، ومنهم للعب ورعاية الأطفال.

كان فكرة هذا الفيلم حينها خيالية، ولكن مع مرور الوقت أصبحت حقيقة، حيث أعلن رجل الأعمال الكندي والمهندس (إيلون ماسك) عن صناعة روبوت آلي شبيه بفكرة الفيلم، وهو العاتول -أوبتيموس Optimus- التابع لشركة الصناعة -Tesla- وهذا الروبوت المتطور يعمل بتقنية ال "AI" والذي يساهم في نقل العالم والقفز به الى مرحلة مُتقدّمة جداً.

في المقابل لا زالت الدول العربية والإسلامية من الناحية الصناعية والرقمية تسير في جزء من عقل -انسان نياندرتال- حيث سنرى عموم الناس عامّة والمنبر الإسلامي خاصّة يتسائلون ويطرحون ما يلي:

يا شيخ: هل يجوز للمرأة شراء Optimus؟

يا شيخ: هل يجوز للمرأة الاستعانة ب Optimus كي يقود السيارة عِوضاً عنها؟

يا شيخ: هل يجوز للمرأة الجلوس لوحدها مع Optimus؟

يا شيخ: هل يجوز للمرأة أن تبدل ملابسها أمام Optimus؟

يا شيخ: هل يجوز للرجل أن يستعين ب Optimus لمساعدته في العمل؟

يا شيخ: هل يجوز للرجل المسلم أن يشتري Optimus لأنه صناعة مسيحيّة؟

ماريّا والملحد

أعلن عن شاغر حول تخصصي -هندسة الحاسوب- في إحدى مؤسسات ال NGO فذهبت وقابلت، وتمت الموافقة علي والحمدلله، وبدأ مشواري في هذه المؤسسة.

كنت أقوم بمهامي الموكلة إلي، إلى جانب زملائي من العرب والأجانب، وعند حضور موعد الصلاة وسماع الآذان كنت أنهض إلى الصلاة، وكان زملائي في العمل والمدير يراقبونني، كنت أرى التهكم في أعينهم، وكنت أرى الغضب في عين رئيس المؤسسة.

وفي يوم من الأيام استدعاني رئيس المؤسسة الى مكتبه، فذهبت، ثم طرقت الباب فقال لي: "إدخل"، فدخلت، كان مكتباً فاخراً، لم أشاهد مثله -الطاولة مصنوعة من خشب الزان السميك المُغطى بألواح الزجاج، والكرسي أسود اللون ومصنوع من أفخم أنواع الجلد الطبي- كان جالساً على الكرسي كما يجلس -زيوس- إله الآلهة اليونانية، ثم قال لي: "إجلس"، فجلست، نظر إلي من تحت نظارته وقال لي: "وبعدين معك يا رسول الله محمد"، فقلت في نفسي: "أستغفر الله العظيم، يناديني برسول الله محمد! ما هذا الكفر!!"، فرددت عليه: "أنا اسمي -محمد- ولست رسول الله"، فهز رأسه وأشار بأصبعه نحوي وتحدث بنبرة عالية قائلا: "لا تصلي في مؤسستي، فأنا لاديني"، فقلت له: "كل إنسان في الحياة له وجهته واعتقاده الذي يؤمن به، وأنا لا أتفق معك فيما تؤمن، ولكني أحترم الإختلاف، وأنا أؤمن بالله الذي وهبني الحياة وخلقني بعدما كنت لاشيء، وحق الله علي أن أطيعه فيما أمر، ولا أطلب منك -يا دكتور- أي شيء سوى أن تسمح لي بالصلاة في مكان العمل"، فردّ علي: "لا أريد أن أراك أنا ولا الموظفين أو الزائرين وأنت تصلي، فأنا لاديني، ومظفيني كذلك، واتجاه المؤسسة أيضا كذلك"، فقلت له: "يا دكتور، إما أن أترك العمل، أو أن تخصص لي مكاناً للصلاة ولو على سطح المؤسسة"، فأعاد ظهره إلا الوراء، ثم شهق وقال لي: "حسنا، أترى تلك الزاوية من القاعة؟"، فقلت له: "نعم"، فقال لي: "عندما تناديك الصلاة اذهب اليها وصلِّ، ولا تدع أحدا من الموظفين يراك"، فقلت له: "شكرا جزيلاً".

عندما هممت بالخروج قال لي باستخفاف: "إلهك الذي تصلي له يعلم أني لا أملك في جيبي نقود، فلماذا لا يرسل لي المال من السماء الآن إذا كان حقا موجود؟"، عدت إلى نفسي أستغفر الله العظيم من جهل وكفر هذا المسؤول الملحد، ثم عدت إليه وقلت له: "إن للإنسان ما سعى، من غير المعقول أن تأتيني الوظيفة دون أن أسعى إليها! ومن غير المعقول أن يأتيك المال دون أن تسعى إليه"، وخرجت.

عند حضور موعد صلاة الظهر، توجهت نحو القاعة وإلى تلك الزاوية تحديداً كي أصلي، وبالصدفة لمحت ذلك زميلة أجنبية -ألمانية- تُدعى "ماريّا" في الأربعين من العمر، فسألت الزملاء: "ماذا يفعل؟"، فردوا عليها بسخرية: "إنه يصلي".

انتهيت من صلاتي، ثم اتجهت الى مكتبي لإتمام مهامي، وعند حلول وقت انصرافنا من العمل، كان رئيس المؤسسة -الملحد- يقف مع ماريّا ويخبرها أن تصعد معهُ بمركبته المرسيدس كي يوصلها الى منزلها، ولكنها قالت له: "كلاّ، أريد أن أعود إلى منزي سيراً على الأقدام برفقة زميلي محمد".

نفضت رأسي من الذهول من جوابها وتسائلت: "غريب، لماذا تريد أن تسير برفقتي إلى منزلها!؟"، سرنا معاً، وكان شغفها لمرافقتي هو أنها رأتني الوحيد الذي يصلي في المؤسسة، واكتشفت أنها كانت معجبة بسلوكي لتمسكي بديني وبالصلاة، سألتني عن الإسلام، فشرحت لها ما هو الإسلام، وتحدثنا كثيراً حوله وحول الأديان، وإذا بها تقول لي: "أتعلم يا محمد أنني ارتديت الحجاب في مدينة نابلس"، فقلت لها والسرور يملأ وجهي: "هل هذا يعني أنك ستعلنين الإسلام؟"، فقالت لي وهي تبتسم: "لا، لقد ارتديته لأتحاشى معاكسات وتحرش الشباب بي"، فوقفت كالمشلول من ردّها الذي صفع وجهي.

وقفت هي الأخرى وأردفت تقول: "أين الإسلام الذي تتحدث عنه، انظر الى لباس الفتيات المسلمات لديكم كم هو ضيّق ومغري الى حد كبير، والذي يظهر من خلاله كل مفاتنها وحجم أعضائها وعورتها؟! انظر الى ذلك الشاب المسلم الذي بصق على الرصيف؟! وذلك الآخر الذي رمى السيجارة من شباك مركبته على الطريق أثناء القيادة؟! هل هذا هو إسلامكم!!".

تمنيت أن الأرض ابتلعتني وقتها، ودعوت الله أن يلهمني الجواب، فألهمني سبحانه ورددت عليها: "إن هذا ليس هو ديننا، ولا أخلاق ديننا، وإن أردت الإسلام حقا خذيه من كتابنا ومن سلوك نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- وتعاليمه وما وأصانا به، فنحن متأسلمين ولسنا مسلمين".

ثم افترقنا، وذهب كل منا إلى وجهته التي يقصدها.

راتبي الأول

عند تخرجي من كلية الهندسة من جامعة ٦ أكتوبر في جمهورية مصر العربية "مصر"، عدت أدراجي إلى وطن الحبيب فلسطين، وبدأت بالبحث عن عمل كي أكتسب الخبرة وأشيّد مستقبلي.

أرسلت عيني في قوائم الوظائف الشاغرة على الشبكة العنكبوتية، وقابلت في العديد من المؤسسات والهيئات والوزارات حتى تم قبولي بفضل الله في إحداها.

لقد كان الواقع العملي يختلف تماماً عن النظري وعن كل ما تم تلقيني به في الجامعة، لذلك كان علي إعادة نحت أفكاري من جديد، وأن أجتهد في العمل كي أحظى بقبول المسؤول واستحسان الموظفين ليتم تثبيتي في هذه الوظيفة.

كان الشهر الأول لي في هذه المهنة، ولم أتلقى بعد مرتبي فيه، وكانت وظيفتي كجبل شاهق مليئ بالمررات الداخلية، وكان علي أن أجد طريقي في أحدها كي أرى النور.

كنت أغوص بين أرتال الورق، وأحوم بين رفوف الكتب، طفت حول المعلومة شرق المدينة وغربها، أشق الممرات وأكسر المسافات من أجل الوصول إليها، وطرقت باب كل من كان ذو خبرة -منهم من أعتذر، ومنهم من طردني، ومنهم من أغلق السماعة في وجهي، ومنهم من عبس وأزاح بمحيّاهُ عني، ومنهم من استقبلني مُكرهاً ثم تحجّج وهرب- وأنا ما زلت صامداً إزاء حرب تمد بأذرعها كي تهدم حلمي في أن أكون.

كنت أقوّي نفسي، وأثبتها، وأقول لها: "لا يمكنك اغراق السمكة وقتلها بالماء"، لذلك لا يمكن لأي شخص في العالم قتل حلمي.

أنا أعلم يقيناً أن طريق العلم شاق وصعب حتى على الأنبياء، فلقد جاء الوحي لنبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- بإقرأ، بخلاف كل الأنبياء والرسل، حيث جائهم بآيات ومعجزات تكسر قانون الطبيعة، لكن بعهد نبينا محمد -صلوات ربي وسلامه عليه- اختلفت الأمور، فتم الإنعطاف بالنوع الإنساني إلى وجهة أخرى، حيث أصبحت الدنيا دابتنا التي نسوقها بالعلم.

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابنا الكريم -القرآن- برحلة نبينا موسى -عليه السلام- إلى الخضر لنيل المعلومة، وكم كانت بحاجة إلى إنصات وجهد وصبر سيدنا موسى -عليه السلام- الذي كان تلميذاً في هذه الرحلة لدى مَعلمه وأستاذه الخضر.

بشكل عام... حياتي لا تخلوا من عنصر التراجيديا الذي حاول بشتى الطرق طي عنقي وكسره في مشواري في هذه الدّار منذ نعومة أظافري -خاصة عند اشتغالي في هذه الوظيفة- لكن كان والدي وأبي الحبيب "نبيل سليمان كبها" حفظه الله حاضراً في كل تفاصيلها، حيث كان له الأثر الأكبر في

تلوين حياتي بأشكال مختلفة من الصبر والثبات والجهاد والتي ألهمتني وساعدتني في نحت حرفي وتطوير معرفتي.

أمّا عن والدتي وأمي "أم محمد" حفظها الله، فلقد كان لها دور عظيم في بناء هيكلي، حيث كانت تجري بين خلايا جسدي وأنسجتي وأوردتي، وتقف بين لسعة الألم ونغمة الأمل، فتمسح بيدها الدموع من على وجنتي، وتنظف وتزيل وجع الحياة من قلبي المنكسر.

في ختام الأمر انتهيت إلى وجهتي، وأنجزت مهمتي الأولى في هذه الوظيفة، وتقاضيت عنها راتبي الأول -٢٥٠٠ شيكل- وعندما أمسكته بيدي كانت الفرحة لا تسعني، وكنت فخوراً جداً بنفسي.

عدت إلى المنزل، وعندما وصلت إليه ناديت خلف أبي على عجلة، فجاء، جلسنا في غرفة الضيافة، تحدثنا قليلا، ثم وقفت على قدمي واتجهت نحو أبي، ثم جثوت على ركبتي ودنوت برأسي نحو قدم أبي وقبلتها، ثم رفعت رأسي ومددت بيدي التي أمسك فيها راتبي الأول إلى يد أبي، وأعطيته له كاملاً، وقلت له: "هذه ثمرة تعبك علي يا أبي".

نظر إلي أبي وعينه مدموعة، ثم بكى، فتلبكت وتفاجئت من ردّة فعل أبي، فلم أكن أتوقع ردّة الفعل هذه! فسألته وأنا محزون: "ما يبكيك يا أبي؟"، فرد علي: "إن أول راتب لي حصلت عليه وهبته كاملا لجدك رحمه الله".

سائق التكسي

الحرب نثرت ثوبها على ساحة غزة، وقد كان هذا الثوب أحمر اللون وفارع المدى، ولم أكن لأعرف تراتبيّة القدر حوله وما يحمله من مفاجئات، حيث قهر على فروه جثة إسماعيل هنية وحسن نصرالله ويحيى السنوار وأكثر من ٤٥ ألف قتيل من غزة، والمئات منهم في لبنان "نحسبهم جميعاً شهداء عند الله".

بعض المشاهد لا تصدق، وبعضها لا يقع حتى في الخيال، أثناء اتقاد غزة بنيران العدو الصهيوني، بينما كانت أختها الضفة تشوي الدجاج بالباربكيو فوق هذه النيران -إلا من رحم ربي من ثلة المجاهدين في جنين وطولكرم ونابلس وبعض القرى الفلسطينية- وفي إحدى أيام السابع من أكتوبر وتحديدا في نهاية عام ٢٠٢٤م، كنت قد غادرت المنزل للذهاب إلى عملي، حيث أنني أعمل مهندس حاسوب في السلك الصحفي، وكنا في عملنا لا نحوم حول أي نوع من أي خبر دون الإلتفات إلى غزة بشكل خاص.

استقليت مركبتي في الطريق نحو عملي، وأنا بطبعي سائق هادئ لا يسرع، لكن قيادتي هذه تغيظ وتغضب المسرعين والمتمردين على الطريق، الذين يعتبرونني سلحفاة الشارع، وعلى حين غرة واذا بسائق تكسي متهور يسير خلفي، كان يضغط على مزماره بطريقة مزعجة حتى شعرت بأنه يريد أن يضربني به!

كان يحاول التجاوز عني بأية صراط حتى لو كانت النتيجة أن يصعد فوق مركبتي! كانت الطريق ضيقة، وكنا على مشارف مفترق في وسطه حيث لا يمكنني السماح له بالتجاوز لأنه قد يتسبب في حادث سير خطير قد يؤدي بحياته أو بحياتي، ولكنه لم يأبه لذلك، ورغم خطورة الموقف إلا أنه تجاوزني وكان يرمقني بنظراته الحادة وكأنه يريد أن يأكلني.

وأثناء تجاوزه عني كان يصب نظره إلي فقط وأعينه تقدح شراراً، وإذا بشاب يقود دراجته مسرعاً يقطع المفترق، فقمت انا بالضغط على مزماري لكي يتنبه سائق التكسي لصاحب الدراجة، فلقد كان على وشك دهسه لولا لطف الله.

أوقف صاحب التكسي مركبته، وترجل منها، ثم اتجه نحوي وهو يتمتم بعبارات لم أسمعها ويرسل إلى بتلك النظرات الرخوة، وعندما وصل إلي قال لي: "ليش بتزمر"، فقلت له: "أنت الذي ضغطت على لسان مزمارك في البداية ولست أنا، وأنا عندما زمرت لك، كنت أريد أن تنتبه لسائق الدراجة أمامك، لأنك كنت على وشك دهسه!".

جوابي لم يعجبه، فبدأ بمحاولة إختلاق مشكلة ليحتك معي فيزيائيّاً، فقابلته بردّ بارد جداً، فأنا لدي دراية واسعة بهذه العقليات الصفرية، حيث قمت بخفض نافذة سيارتي وقلت له جملة واحدة فقط: "مشكلتي ليست معك، وإنما مع دلوعة أمريكا"، تمسمر مكانه ولم يستوعب ما قلته له، حاول مرات

عديدة استفزازي بشتى الطرق ولكني كنت اردد له هذه الجملة: "مشكلتي ليست معك، وإنما مع دلوعة أمريكا"، ثم غادرت المكان.

إنها أيام الله يداولها كيف يشاء، حيث إلتقيت بسائق التكسي هذا مرة أخرى في احدى المجمعات، وإذا به يتجه نحوي، ثم وقف أمامي وقال لي: "إنت محترم ومؤدب جدّاً، وأنا أطلب منك أن تسامحني"، فقلت له: "سامحك الله"، ثم تأهبت للمغادرة، ولكنه أمسك بي وقال لي: "عبارتك التي قلتها لي -مشكلتي ليست معك، وإنما مع دلوعة أمريكا- ماذا كنت تقصد بها؟"، فقلت له: "كنت أقصد أن مشكلتي هي مع الإحتلال الإسرائيلي -دلوعة أمريكا- وليست معك أو مع أي فلسطيني"، وأكملت وجهتي وعاد هو إلى حظيرته وخلف مقوده.

قال تعالى: وجادلهم بالتي هي أحسن (الاية ١٢٥ من سورة النحل).

لا شك أن هذه التجربة العميقة التي أيقظت سائق التكسي، عثر فيها على الأساس الذي يجب أن يشيّد عليه وجوده، وهو أن حربه مع الاحتلال الإسرائيلي وليست معي -أنا- أو مع أي فلسطيني.

إبني عبودة

إنتظرتك طويلاً كي تعود إلى المنزل، كنت أبكيك كل دقيقة خاصة عندما ننتظم حول مائدة الطعام.

لكن كان علي أن امسح دموعي، وأن أثق بأنك قادراً على الاعتناء بنفسك وعلى تحمل المسؤولية كي تخرج من سجن خيالك وتعود لنا مهندساً، وها قد صبرنا على ضيم السنين الخمسة حتى عدت لنا أخيراً المهندس "حمودة".

كان ولا زال أبي وأمي ينادونني ب "عبودة"، منذ أن تنفست رئتي الأكسجين في حجر أمي إلى أن شارفت على البلوغ في سن الأربعين، وكان أكثر ما يزعجني عندما يكون النداء أمام الغرباء، كنت لا أحب ذلك، فأنا اسمي "عبدالرحمن" وكنت أرغب بأن ينادونني به، وأنا أحب اسمي -عبدالرحمن- جداً، كيف لا، وقد سماني والدي بهذا الإسم كي أكون عبداً لله وحده فقط.

عندما انتهيت من المرحلة الثانوية، وتجهّزت لألتحق بالجامعة وأتخصص بالتجارة، جاء إلي أبي للحديث معي، أخبرني الكثير وأوصاني بالآتي: "نحن الآباء نذهب بعيداً أحيانا لحماية أبنائنا، قد نخنقهم في هذه الرقابة، ولكننا نعمد إلى ذلك لحمايتهم ولأننا نحبهم، ونرغب بأن يكونوا أفضل منا - إن الأب يا بني لا يحب أن يكون أي شخص في العالم أفضل منه سوى ابنه- بهذه العبارات ختم رسالته لي".

الإبن: "أبي، أنا أحبك، لكن عظمي استوى، واصبحت أبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وأريدك أن تثق بي".

والدي "حفظه الله": "إنني أراك طفلي ذو الستة أعوام، ولا أراك شاباً يبلغ من العمر ثمانية عشر، ولو أصبحت وزيراً، ولو بلغت من العمر -ثمانون- فإنني لا أزال أراك طفلي الصغير ذو الستة أعوام ... لا زلت أراك عبودة".

استشط غضباً بيني وبين نفسي عندما قال لي أبي -عبودة- فقلت لأبي "حفظه الله: "لم أعد عبودة ذو الستة أعوام، أنا -عبدالرحمن- ذو الثمانية عشر عاماً".

وغادرت المجلس كي أهيئ نفسي للذهاب والتسجيل بالجامعة من أجل الدراسة، وجاء موعد إقلاعي وكانت وجهتي نحو جامعة بيرزيت.

كان والدي "حفظه الله" لا يرسل لي أقساط الجامعة إلا عندما أرسل له شهادة انتهاء الفصل الجامعي مصدقة ومختومة من رئيس الجامعة، بقيت على هذا الحال حتى تخرجت والحمد لله منها، وأصبت بعضاً من أحلامي، عدت أدراجي إلى كنف والدي "الاقتصادي عبدالرحمن" ذو الثلاثة وعشرون عاماً.

استقبلني الجميع بحفاوة، واحتفلوا بي، وبعد بضعت أيام قال لي أبي: "ليس مزيدا من خططي لمراقبة وحمايتك، حان الآن أن تضع خططك أنت لتعمل كمحاسب أو إقتصادي وتختار عروسك وتبني منزلك يا عبودة".

قلت في نفسي: "عبودة!، لا يزال يناديني عبودة! حتى بعد أن تخرجت ما زال يناديني عبودة!".

مرت الأيام والأسابيع والأشهر والسنين، وعملت كمحاسب في مؤسسات عديدة خاصة وحكومية، وبنيت منزلي، وتزوجت من امرأة فاضلة، وأنجبت طفلين جميلين "عزالدين" و"عمر"، وبلغت من العمر ٣٥، وأصبحت مديراً في احدى مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، ولا زال أبي الحبيب وأمي الحبيبة يروننا طفلاً ذو ستة أعوام، ولا زالوا ينادونني "عبودة".

إنه عمدوي الفقري، إنه أخي الحبيب (عبدالرحمن نبيل سليمان كبها).

أنا والسياسي

تمت دعوتي الى احدى المؤسسات الثقافية العريقة في فلسطين، وعند وصولي كان بانتظاري نخبة من لفيف المثقفين والكتاب والأدباء والسياسيين، وكان من بينهم سياسي بارز على المستوى المحلي والإقليمي.

دخلت وجلست، وكان مكاني بمحاذات هذا السياسي والذي يعمل أيضا كأكاديمي في جامعات الوطن، فرأيته يحمل بين يديه كتابي (السابع من أكتوبر: "بداية اللعنة") ثم نظر إلي نظرة رخوة وقال لي: "أنا لا أناقش المشايخ، ولكني سأخوض معك نقاشاً لأنك مفكر إسلامي، وبما أنك كذلك هذا يستدعي منك تقبّل الآخر واحترام رأيه ووجهة نظره"، فقلت له: "هذا من أساسيات وأدبيات الحوار، لا تقلق، ولكن لي طلب؟"، فرد علي: "وما هو؟"، فقلت له: "سأصغي لك حتى النهاية، ولكن في المقابل سيكون عليك الإلتزام من ناحيتك وإعطائي المجال بالرد".

بدأ الحوار، وما كان منه إلا أن ألقى هذه الكلمات مُحاولاً صفع وجهي بها، فقال لي: (صورة مأساة الإنسان في غزة والتي صَوّرتها في كتابك -السابع من أكتوبر: "بداية اللعنة"- على أنها بطولة، وأن المقاومة في غزة هي شرف الأمة ولولاها لما قامت لنا قائمة هذا كله وهم باطل، أين غزة الآن؟ لقد محيت عن الخارطة! أي أهل غزة الآن؟ أربعون ألف شهيد ويزيدون! كل ذلك كان سببهُ ذلك الحزب والمقاومين فيه، هل من المعقول أن أصدق أن بضع مئات اخترقوا الأسلاك الشائكة والجدران الأسمنتية والرادارات، وقاموا بقتل وأسر وقهر الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر!؟ إن الاحتلال يعلم أن هذا سيحدث مسبقاً، وهم من مهّد السبيل للطوفان بأن ينزل لكي يكون لهم حجّة، ويرتكبوا الابادات والمجازر والنكبات والنكسات -إن الطوفان هو من قاد غزة للهلاك، إنه السبب الرئيسي في كل ما حدث- وانظر في المقابل كيف ننعم نحن بالأمان هنا بالضفة بفعل من هم قائمين على قيادتها من أحزاب ومسؤولين.... هذا رأيي".

كان الحضور ينتظمون حولنا ويستمعون بإصغاء للحوار، سألت السياسي: "هل انتهيت"، فأجابني: "نعم"، فقلت له: "الآن جاء دوري كي أرد"، فقال لي: "تفضل"، فبدأت حواري معه بجملة من الأسئلة كان منها: ("هل يعقل أيها السياسي أن تساوي بين الضحية والمحتل؟"، وسؤال آخر: "إن الطوفان هو حصيلة ونتيجة لإحتلال صهيوني إسرائيلي يجثم على صدورنا ويكتم أنفاسنا منذ أكثر من بضع وسبعون عاماً، أليس هذا صحيح؟"، وسؤال ثالث: "شن الاحتلال الصهيوإسرائيلي في السابق سبعة حروب على غزة دون أن تبدي المقاومة أي حركة أو حتى أي نفس منها، لماذا لم تلوموا إسرائيل على ما اجترحته في السبعة حروب السابقة، ولمتم المقاومة أنها سبقت هذه المرة بخطوة؟!"، وسؤال رابع: "أي أمان تتحدث عنه في الضفة وفي كل يوم يقتل العشرات ويسجن المئات منا دون اكتراث من القيادة والمسؤولين والأحزاب لدينا؟"، أخذت نفساً عميقاً ثم قلت له: "أنسيت أيها السياسي البارز أننا محتلون؟!"، ثم أرسلت له هذه العبارات: "لقد علموني أيها السياسي في المدرسة أشياء كثيرة، فأعطوني ذكريات لوطن لم أره بعد، وولاء لحاكم لا يمكنني أن أخدمه،

وحبا لطفل فلسطيني لم أستطع أن أنقذه من أنياب هذا المسخ اللعين الذي أنشبها في جسده وفي حلمه!! لذلك علينا أيها السياسي أن نختار إما الطريق الطويل أو القصير، أو بالأحرى الطريق الطويل أو المميت، ولا يهم إذا كنت فلسطيني الهوى والهوية، وأنا أعلم أن الذين قاتلوا من أجل الوطن ليس لهم مكان فيه، ولكن لا بأس، فالموت من أجل الوطن هو اليقظة، وهل هناك نهاية مشرفة اكثر من ذلك، إنني افضل العيش فيه مع الموت على أن أعيش مع مسخ لعين لا يريد أن يمنحني الحق بالحياة التي وهبني الله تعالى اياها لأحياها، لماذا؟ لأنه كلما نظر إلي وحدّق في عيني فإنه يرى وعد الله آت، ونهايته قد اقتربت! كتلك الأم الفلسطينية التي رفضت الهرب بسبب شرفها، فأيقظتها دمائها، وكأنها ولدت من جديد، فتحول ألمها الى غضب، وغضبها الى انتقام، فتعلمت كيف القتال، لتأخذ بثأر أولادها وزوجها ونفسها وقدسها من هذا الجرثوم الذي لا يزال يعيش في فقراتها القديمة". ثم ختمت حواري معه قائلا: "أيها السياسي، ألا ترى أنك تنادي بما ينادي به نتنياهو وبن غفير وغالانت؟! إن حيفا لي، عكا لي، اللد والرملة لي، القدس والأقصى لي، هذا وطني هذا بيتي هذا شارعي، لذلك دعني احبه كما أريد، ودع الطوفان يحبه كما يريد، هذا الطوفان الذي توجه له الاتهامات هو الوحيد الذي صرخ في وجه هذا الإحتلال الصهيوإسرائيلي بعدما سقطت العروبة من أحرف العرب، وسقط المسلمون من أحرف الإسلام، و سقطت الإنسانية من أحرف الانسان، وهذا ما لم يعقله ولا يخبره سياسي وجودي يحوم حول العقل، وينزع اليه والى براهينه، دون الرجوع الى حظيرة الإيمان وإلى وعد الله تعالى لنا في كتابه الكريم").

خرجت من المؤسسة وأنا أعلم أن حواري مع السياسي كحوار مثقف الماغوط مع كلب السياسي عندما خان وطنه، أما بالنسبة لمن يدّعون الإسلام فإني أشك بذلك -إلا من رحم ربي منهم- يا خسارة!! أين العالم والمسلمين من الأسد سلطان؟! لقد أكل نفسه ندما على قتله لمدربه -الحلو- أعتقد أن روح الأسد سلطان -الحيوان- لها ضمير يفوق معظم المسلمين والعربان!

فلسطين ضاعت بين إسلاميين يفتشون عن أعضائهم، وبين عرب مشغولون فيما بين سيقانهم.

فلسطين غزى أنسجتها السرطان الذي حال يدور وسط خط أصفر ساكت ويتفرج، وخط أخضر إندفع دون كوابح، وخط أحمر واقف ينتظر، ومابين يسار يكسر اليمين، ويمين يذبح اليسار، كانت فلسطين تصرخ ألما ووجعاً أنها لا يسارية ولا يمينية.

فلسطين حارت في مسيرات مخصية لم تفلح فيها ألسنتنا سوى في إطلاق الشعارات والهتافات، وبين أيادٍ ناعمة تراشقت فيها الفتيات، وما بين خطابات الساسة ونجومهم الكدرة التي أفرغت جيوبنا، وما بين نسور واقفة على أكتاف غيرهم دون حراك منذ أكثر من سبعون عاماً.

وما بين كل هذا وذلك ترى الشاب الفلسطيني يقف شامخاً بين حاجز ورصاصة، تراه شاعراً وملحناً وفناناً وصحفياً ومهندساً ونجاراً وكاتباً ورسّاماً يرسم بيد واحدة يده الأخرى التي بترها الاحتلال الإسرائيلي.

صرخة ماكس

لم أكن على دراية أنك ستكون السبب في إرتقاء فكري وتلوين أعمالي كي أكتب لأول مرة في حياتي مجموعة قصصية أتحدث فيها عن حكايتك الحزينة.

لا أعلم من أين أبدأ وكيف أبدأ، ولكن هناك شيء دفعني لكي أجنّح نحوك، وهل لك أن تتخيل كيف لجرو صغير مثلك أن يفقدني الإتزان، ويحملني أن أدور حول أمه التي كانت تلاعبه وتلعق شعره الأسود الجذّاب المُترع باللون الرمادي.

يا لعظمة اليد التي نحتتك ورسمتك ونفثتك وقدّرت لقيانا في نواعير رام الله، أكنت تعلم أني وحيد أتنقل في هذه الدنيا العابثة بين خريف عولمة المتحضرين، وربيع المتصهينين وصيف المتأسلمين، أكنت تدري أني أنتظر شتاء الناسكين كي لا يرى أحد من لفيف العالمين ماء عيني!!

جعلت أنظر إلى همهمات ووشوشات أمك المرتبكة وهي تطبع قبلة على رأسك، وترقب حفيف خطواتك نحوي في هذه الدار التي لا تخلو من البعد التراجيدي، وكأنها كانت تقول لك: "لا تذهب إليه يا بني".

ولكنه تعالق الأحبة، ولكن هذه المرة لم تكن بين إنسان وإنسان، وإنما بين إنسان وحيوان "بيني وبينك أيها الجرو الحبيب".

لقد عقدت الدهشة أركاني أمام جرو لا يبلغ من العمر الشهرين، فلم يكن كلباً عاديّاً، بل كان ألطفهم وأجملهم، وبدون وعي جعلت أمضي نحوه خطوة تلو الأخرى حتى صفعني الدين على مؤخرة رأسي، فتوقفت هنيّة، ثم تراجعت خطوات، ثم قلت في نفسي: "لا يُمكن أن أكون سبباً في أن أنحيه عن أمه"، لقد كان مطمئناً وسعيداً برفقتها، يلعب معها ويقفز حولها.

تراجعت قليلا، وبين حيرة وسؤال أرسل إلي هذا الجرو عبر عينه البراقة سهما قتلني -ما أجملك! سبحان من خلقك!- دلفت كلمتي الأخيرة رغما عني وقلت لنفسي: "سآخذه"، شعرت بالإرتياح والطمأنينة وقتها، وبدأت أتجه كشمعة تحترق نحو الأم، أحاول الإقتراب منها كي أخمد نشيجها، ولكن كلما إقتربت منها كلما إبتعدت عني، ولم تنجح كل محاولاتي معها لكسر المسافات.

وعلى حين غرة قلت لنفسي: "سأحمل جروها، وسأسير به، وهي بالتأكيد ستتبعُني من أجله"، وبالفعل، حملته وسرت به، وما هي إلّا ثواني حتى تبعتني الأم وهي تشهق قلقاً وتزفر خوفاً عليه، كنت أمشي أمامها بهدوء، وكانت تتبعني من الخلف بحذر وبطئ، بينما كانت السعادة تغمر جروها بشكل جلي وهو غائر في أحضاني، ولكني لم أكن أعلم أن القدر سيأخذني في أعطافه مع هذا الجرو نحو صرخة حزينة.

سرت ما يقارب النصف كيلو، ومع ذلك ظلّت الأم تسير خلفي، كانت الفرحة لا تسعني وأنا بصحبتهم معاً، وكنت أرسم مرابع مسكنهم تحت شجرة التين في باحة منزلي، وقبل وصولي وإذا بإحدى الكلاب الشرسة تعترض طريقنا، وما لبثت قليلاً حتى انقضّت على الأم كديناصور فارغاً فاه، فما كان من الأم سوى أنها فرّت هاربة كي لا تقع فريسة بين شدقي هذه الكلبة المسعورة، ركضت حتى اختفت، وتركت جروها يتنفس خوفاً ويتجمد رعباً معي.

تملّكني الغضب حينها، ومكثت أنتظر في وسط الطريق، فلم يكن على مشارف منزلي سوى بضعة أمتار، آخ!!! -لو كان معي سلاح وقتها لقتلت هذه الكلبة الشرسة- أرسلت نظرة غضب لها وصحت وقذفت في وجهها بعض الحجارة حتى رحلت.

حامت الأفكار بعدها فوق رأسي قليلاً، ولم أجد أمامي سوى خيارين، إما أن أترك هذا الجرو الصغير في وجه قدر مجهول على جنبات الطريق ليأكله الموت، أو أن أصحبهُ معي إلى المنزل، فقررت أن أصطحبه معي كي لا تنهشه الحياة، فما زال صغيراً إزاء لكماتها ولا يمكنه الإعتماد على نفسه بعد.

وصلت المنزل، وكان أول ما قمت به هو بناء بيت لهذا الجرو على شفا شجرة التينة، وعندما انتهيت منه وضعته بداخله وقدّمت له الطعام والشراب، وقلت لنفسي: "ماذا أسميه؟ ماذا أسميه؟ ماكس، سأسميه ماكس"، فقلت له: "هيا يا ماكس، ألا تريد القيام بجولة تفقدية لبيتك؟ تناول طعامك"، ودرت ظهري لأغادر، وإذا به ينبح بصوت حزين كما وكأنه ينادي، ولا أعلم هل كان ينادي على أمّه، أم أنه كان ينادي علي كي لا أتركه لوحده؟

لقد غرقت في طين اللوم حينها، فقد كان كما وكأن الخوف قد التهمه -يداه ترتجفان، ويلتفت يمينا وشمالا، ويتحرك كالمصروع- فحملته برفق ولين كما وكأني أحمل إبني "نبيل" عندما كان طفلا رضيعاً، وخبّأته بحضني حتى سكن عنه الروع، ثم قلت لنفسي: "لا أريد أن أبقيه وحيدا، سأضع معه كلباً آخر يرافقه في وحشته"، وبالفعل فعلت ذلك، ولكن بدا وكأن الخوف ما زال ينثر ثيابه في المكان، وما هي إلا لحظات حتى صار ماكس ينبح وكأنه يصرخ علي، فقلت لنفسي: "هل هو خائف من الكلب الآخر؟"، فحملته مرّة أخرى حتى هدأ، وأخرجت الكلب الآخر من منزل ماكس، ثم أعدت ماكس لوحده في بيته، وقلت له:" لا تقلق يا ماكس، لقد ران الخوف عليك لأنها المرة الأولى التي ستنام فيها لوحدك، لكنك ستعتاد بعدها السكنى والمبيت في هذا البيت الجميل، تصبح على خير"، وصعدت الى منزلي لكي أخلد للنوم، فلقد تأخر الوقت وأنا لدي عمل في الصباح الباكر.

عند دخولي في النوم استيقظت سنوات عمري الخاوية حول ما يسمى "صديق"، فأنا شخصيّاً علاقاتي محدودة جدّاً، ومعظم وقتي أقضيه وحيداً بين الكتب، وأجد صعوبة في الإنخراط مع النّاس، ولا أستطيع البوح عن ما يثور في أعماقي حتى لأقرب الناس لدي، فقرّرت أن يكون ماكس هو أوّل من سأبوح له بسرّي.

في صباح اليوم التالي ذهبت للإطمئنان على ماكس، وبدى لي أنه بخير، قدّمت له الطعام والشراب وذهبت للعمل، وفي تمام الساعة الثالثة عصراً غادرت شغلي مبكراً ومسرعاً للإطمئنان على ماكس، فوجدته بخير وقد إنتهى من طعامه، فصعدت الى المنزل فرحاً، وبدلت ملابسي، ورجعت له كي أصطحبه معي في نزهة.

ذهبنا الى الخلاء حيث أجلس دائماً لوحدي على تلك التلة، ولكن هذه المرّة كان معي صديق -إنه ماكس- جلسنا معاً فوق تلّتي، وكان ماكس سعيد برفقتي، وكنت أنا أيضاً مسرور برفقته، أخذ يلعب ويقفز ويدور من حولي، ثم أقبل وجثى بين يدي، فقلت في نفسي: "آن الآن أن أبوح له بسري، آن الأوان أن أنزع ذلك المسمار من قلبي وألقيه على كاهل ماكس"، وبحت له بما لم أستطع البوح به لأقرب الناس لدي، وما ان انتهيت من الحديث معه حتى ربض ونام، جعلت أمرر أصابعي على شعر جسده الأخّاذ، كم كنت سعيداً ويداي تحتضن هذا الصديق الذي أخمد حرباً أنهكتني واستنزفتني لسنوات بعيدة.

دنا الليل، فأيقظت ماكس وعدنا سوياً الى المنزل، أدخلته بيته ووضعت له الطعام والماء، ومضيت الى منزلي، في الصباح ذهبت لأشق عليه فوجدته لم يتناول الطعام ولا الماء! فقلت: "لا بأس، يحدث عادة هذا"، ثم إتجهت إلى عملي.

عند عودتي شققت عليه كالعادة، ثم صعدت الى المنزل وقمت بتغيير ثيابي على الفور، وعدت أدراجي إليه برفقة ابنتي "تالا"، فحملته ونشرته في فناء المنزل، وراح يلهو مع تالا هنا وهناك حتى المساء، ثم أعدته الى بيته وقدمت له الماء والطعام.

في صباح اليوم التالي ذهبت للإطمئنان عليه، فوجدته لم يتناول الطعالم والماء -لقرابة يومين متتاليين- ألقمته الماء ولكنه رفض حتى أن يرتشف منه! ومع مرور الأيام بدا وكأن الوهن قد ابتلعه، والحزن قد أنشب أظافره فيه فأخمد صوته وردم ابتسامته.

حاولت أن أفهم سبب هذا الحزن الذي غلّف وجه ماكس فجأة، ولكني لم أصل إلى جواب، وعند حلول وقت الظهيرة فوجئت بخروج سائل أبيض كثيف من فمه! وإذا بعقلي يجلدني بالأسئلة، ولم أستطع التفكير، وكانت الأفكار تتداخل ببعضها حتى اختلط عليها التمييز.

شيء أكيد يتنقل بين غرف دماغي، وهو أني أشعر بالقلق الشديد على ماكس، وبدون وعي خلعت قميصي عني وجعلت أمسح به هذا السائل الذي ينفجرمن فمه، فنظر إلي وكأنه يقول لي وداعاً -لم أجد معنى في نظراته هذه التي رمقني بها سوى انها نظرات الوداع- قمت بتنظيفه وتمشيطه ومن ثم خرجت أنا وهو إلى الخلاء، ووضعته على الارض لكي يمشي ويلعب، ولكنه لم يقوى على الوقوف، وبعد عناء وجهاد نصب نفسه، وأخذ يسير بتخبط بضع خطوات، ثم اتكأ على صخرة، ثم استلقى، ثم ضمّ نفسه محاولا أن ينام.

قمت بالإتصال بالطبيب البيطري فوراً، وأخبرته بحال ماكس، فقال لي أنه قد يكون تعرض للتسمم جراء لدغة أفعى أو عقرب، أو أنه تناول طعام سامّاً، أو أنه يعاني داء معوي، وأخبرني أنه كي يعالج ماكس علي دفع ما يقارب ال ٥٠٠ شيكل.

كنا في نهاية الشهر، ولم يكن بحوزتي أي مبلغ من المال، فقلت في نفسي -سأقترض المال غدا لعلاجه- وحملت ماكس وأعدته إلى منزله، وفي صباح اليوم التالي استيقظت وارتديت هندامي وخرجت لاقتراض المال، وفي طريقي مررت بماكس وإذا به قد فارق الحياة، مات!!

لقد شعرت حينها وكأن السماء تثوي علي، وغلف الحزن وجداني، فكان كما الدبابيس التي تخزق قلبي، بكيت كثيراً، ثم حملت ماكس بين يدي ودفنته بقميصي.

بعد مرور سويعات أصبت بنوبة حزن شديدة، وانهمرت الأسئلة علي من كل حدب وصوب، كيف مات؟ كيف مات؟ لم أقتنع برواية الطبيب بأنه قد تعرض للتسمم -فأنا من كنت يضع له الطعام- ولا من لدغة أفعى -فقد أقمت بيته على أرضية أشرفت شخصيّاً على تنظيفها وأزلت منها كل مصادر الخطر- صدقًا، لا أعلم ما الذي جرى؟!

ثلاثة أيام وأنا أفكر كيف مات ماكس؟! وصلت في النهاية -بعد تفكير طويل- من الممكن أنه قد يكون قد قضى على نفسه "إنتحر!"، قد يكون أقدم على الإنتحار لبعده عن أمه، أو لأني وضعته في قفص، أو لأنه كان ينام وحيداً -يبدوا أنه كان يعاني من ألم الوحدة، أو من خوف الظلام- أعتقد أن ماكس كان سعيداً معي في البداية، ولكنه كان على أمل أن يرى أمه مرة أخرى، وعندما اختفت كان يراني مكانها، هل من المعقول أنه كان يريد أن أملأ "أنا" مكان أمه؟ هل كان يرغب بالعيش معي داخل منزلي، وأن يبيت في حضني وليس وحيداً في بيت كالقفص أسفل شجرة التين؟ هل أصيب ماكس بالإكتئاب من شدة حزنه فأضرب عن الطعام والشراب وإنتحر؟!

دفعني حزني وحيرتي كي أقرأ عن عالم الكلاب، وهل يوجد فعلاً ما يسمى باكتئاب الكلاب؟ لأصدم أخيراً بالجواب، فقد تم دراسة سلوك الحيوان من قبل علماء الزولوجي الذين قالوا وأكّدوا ان هناك ما يسمى ب "اكتئاب الحيوان" وهو تماما كاكتئاب الإنسان، فتلك الزرافة التي رفضت أن يتم وضعها داخل قفص في حديقة الحيوان، فأخذت تضرب رأسها بالحائط حتى ماتت، إنتحرت! وذلك الأسد الذي رفض أن يعيش هو الآخر داخل القفص في حديقة الحيوان، فظل يعض في ذيله وفي جسده حتى مات، إنتحر! وتلك العصفورة التي أضربت عن الطعام والشراب طلبا في حريتها وماتت، إنتحرت! فتأكدت تماما أن ماكس قد انتحر، لأنه أضرب عن الطعام والشراب ليومين متتاليين قبل أن ينهي حياته، قد يكون لحزنه على أمه، أو لوحدته، أو لرفضه العيش في قفص بنيته له!!

لقد أضرم القلق في رأسي لهيباً عندما اضطلعت على هذه المعلومة، وشعرت أني أنا السبب في انتحار ماكس الذي كان يعاني من الاكتئاب الشديد لرفضه العيش داخل القفص، ليطلب أخيراً حريّته

عبر موته، موته الذي سبب لي الحزن الشديد حتى هوى بي في قبضة الإكتئاب ذاته الذي كان يعاني منه ماكس.

تذكرت قول الله تعالى في كتابه: وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ [الْأَنْعَام: ٣٨].

لقد علمني ماكس درساً عظيماً لا يمكن أن أنساه، وهو أنه بالإمكان أن تجد الإنسانية في أكثر الأماكن الغير متوقعة أن تجدها فيها، قد تراها في كلب يبكي على موت صاحبه، قد تراها في قطّة ترضع فأراً، قد تراها في تمساح ينقذ ماعزاً من الغرق، قد تراها في نمر يحضن غزالاً، قد تراها في ذئب ينعش سمكة على أعتاب الموت.

قد تراها في عصفور داخل قفص يُضرب عن الماء والطّعام مطالباً في حريّته من قبضة الإنسان، يرفض أن يكون أسيراً، ويحاول الفرار بكل الطّرق من أجل أن يبقى مع أهلهِ وصغاره ومجموعته، أخيراً مات العصفور، وجزء مني مات معه، أخيرا فرّ وطار العصفور، وجزء منّي طار معه، أتعلمون... لقد علّمني هذا العصفور درساً، وهو أنّ العصفور لم يكن عصفور، فليس نحن من حرّرناه بل هو من حرّرنا، ليس نحن من أنقذناه بل هو من أنقذنا، لقد علمنّي العصفور كيف يكون الإنسان، كيف تكون الإنسانيّة في داخل القفص وفي خارجه، وأن تكون -إنسان- ليس بالأمر السهل، لقد علّمني كلبي "ماكس" كيف يكون الإنسان إنسان!!

أخيراً... لقد كان منزلا جميلا في عيني، ولكنه كان قفصاً في عين ماكس!!!

الفيل العملاق

أعتقد أن البداية مع هذا الفيل العملاق هي عندما يتسلّل إليك خلسةً بكل هدوء برفقة أعوانه، حتّى يتنهي بك المطاف ذرّة في بهو معدته.

هذا الفيل ليس كأي فيل عرفته أو شاهدته، لأنه ليس له شكل ولا ماهيّة، ليس له أذن ليسمعني، أو قلب ليشعر بي، لا يبالي كم وصل الألم بي، ولا يكترث إن انتحرت بسببه!!

ومهما حاولت، فإنني لا أستطيع إمساك قفزته المتوقعة، ولا أستطيع تخمين قفزته الغير متوقعة، بين ثانية وضحاها أجده قد تعلّق وركب على ظهري! ومع تلوّن الأيام يقوم باستهلاك طاقتي، وأسير كما وكأنني على ظهر سلحفاة.

أما عن ملامحي فكأنما مضغها القلق وابتلعها الحزن، وفي ابانها فإن الصباح يعادل المساء، والأيام كلها تشبه بعضها البعض في عيني، وكأني أنظر إليها من خلف زجاج سميك بدون ألوان، فاضطر إلى أن أضع قناعاً بسّاماً على وجهي عندما أخرج إلى الشارع أو العمل أو حتى عندما أجلس مع زوجتي وأولادي على مائدة الطعام، هذا القناع ذو الإبتسامة المزيّفة أخفي ورائه وجهي الحقيقي الذي اشتقت الى أن أراه.

تتعاقب الأيام حول جثتي، ففي يوم أجلد نفسي وأعاقبها، وفي اليوم الذي يليه أدلّلها وأحبها، وعند وقوفي على الفاصلة بينهما يستيقظ جنود الفيل مِمَن يسكنون عقلي ويتسابقون في أوردته، وياليتكم تعلمون بماذا يخبرونني؟! أحدهم يخبرني أن أرمي نفسي من فوق سطح البناية كي أطير مع الملائكة، والآخر يحثني على أن أشنق نفسي كي أدخل الفردوس الموعود، والثالث يريد أن يصحبني بنزهة إلى بطن البحر كي ألتقي بالحور العين.

يبدوا أنني في وضع لا أحسد عليه...

بحثت عن بقايا صديق لأخبره عن عقلي المترنح بين أحمق نائم وعملاق مخدر ومسخ لعين وخروف مبرمج لعلّه يفهمني! لكن دون جدوى ... بحثت عن طبيب أو معالج نفسي كي ينقذني من توهاني بين سفينة البهائم وحديقة الشيطان ومنارة آدم وكهف إبليس، فوصف لي "بروزاك" ومنوم "زوبيكلون" ولكن عبثاً تحاول، لا فائدة ترجى... فأنا كمن لديه جزء في دماغه لا ينتمي إليه! ما الحيلة أمام عقل يعيي أنه يقف بين الوجود واللّاوجود، وبين المعنى واللّامعنى!؟

أصبحت حياتي رمادية، تماماً كإشارة المرور عندما تستقر على اللون الأحمر، والأشياء التي كانت تسعدني سابقاً لا معنى ولا قيمة لها، ولم تعد كذلك، ومع تسارع الزمن أشعر وكأنّ عقلي قد تخلّى عني، فتارة يرميني في ماضٍ لم أخلق فيه، وتارة يرسلني الى مستقبل ليس لي أي وجود فيه، وبين هذا وذلك يمضغ هذا الفيل كل يوم جزءً مني، ولا أستطيع أن أدفع أسنانه التي أنشبها في لحمي، لا أستطيع...

في الغالب يجرّني نحو السّرير، وينفث في وجهي سحره الذي يقيّدني ويقلبني، وأشعر بثقل كبير يرقد على أجفاني -وكانّهما يحملان جبلا- لأستسلم في النّهاية الى صديقي الوحيد -السّرير- وأغمض عيني بعد صراع طويل وخاسر إلى النوم برفقة هذا الفيل.

وياليت لي أن أنام بعد هذه الهزيمة النكراء، فبمجرد أن أغمض عيناي يستيقظ القلق الذي يختبئ تحت طيات عقلي، وينقلني بلمح البصر إلى نفق أسود كاحل، حيث يبتعد ويختفي فيه الجميع عني.

ولكن لا بأس، فأنا معتاد على الوحدة، فحتى عند استيقاظي أكون وحيداً في منتصف وجود أنشب مخالبه في حياتي وفي حلمي حتى.

لقد حاولت أمي -حفظها الله- الوقوف إلى جانبي بكل الطرق، فكانت تجلس على حافة سريري وتقول لي: "يا بني، حاول أن تضيء مصباح الغرفة على الأقل؟"، وكنت أجيبها: "لا أستطيع يا أمي، عند إشعالي له أرى أشباحاً مخيفة ووجوهاً ومرعبة تريد أن تنقض علي".

وحاول أبي -حفظه الله- أن يكسر خوفي، فكان يقول لي: "يا بني، حاول أن تغادر السّرير، وتعال اجلس معنا؟"، ولكن أبي لا يعلم أنّ هناك مجانين يلتفّون حول سريري -أبي لا يراهم، لأنهم يتجلّون لي فقط- فها هو القلق يقف على يمين سريري، والأرق على يساره، والخوف من أمامه، والوسواس من خلفه -أنا الأسير والسّجين لديهم- لا يعلم والدي أنّي لا أستطيع مغادرة سريري.

وكانت لزوجتي -رضي ربي عنها- محاولات أيضاً، فكانت تقول لي: "يا حبيبي، حاول أن تخرج معنا الى الطّبيعة؟ فالطبيعة الخضراء جيّدة لحالتك"، وهي لا تعلم أني عندما أخرج إلى الطبيعة أرى فيها قبراً، وهذا القبر يتبعني إلى كل مكان، ويخبرني في كل لحظة بأنّي سأموت، وأنا أهرب من فاه المغفورة كي لا أسقط بداخلها.

أما عن إخوتي فلن أنسى سعيهم لإخراجي من أزمتي هذه، فقد كانوا يقولون لي: "أخي، تعال إسهر معنا ومع الأصدقاء في المقهى أو في أي مكان تريد؟"، وهم لا يعلمون أنّ أصدقائي الوهميين هم خبراء في نفسي، يرافقونها الى كل مدينة وقرية أزورها، وإن أردت الإفلات والتزويغ من قبضتهم أجدهم بإنتظاري قبل أن يرتد إلي طرفي.

ولن أنسى القوارير -أخواتي- اللّواتي فعلن كل ما باستطاعتهن لإزالة الدبابيس من قلبي، فكانوا يخبرونني: "أخي الحبيب، تعال إذهب معنا الى الحفلة كي تُغير عن نفسك؟"، وهنّ لا يعلمن أنّي أنا الوحيد الذي لا أرغب بالإنضمام إلى هذه الحفلة، لماذا، لأنّي أنا الحفلة! أنا الحفلة التي سيرقص على ساحتها وعلى أرضها هؤلاء المجانين برفقة سيدهم "الفيل"!

بعض الأقارب كان لهم دور طفيف، فكانوا يتحدثون إلي عن ظهر قلب بكلمات قصيرة، منها: "إنسَ، إضحك، طنّش؟"، وهم لا يعلمون أنّ خلف قناعي البسّام معارك خفية تدار، ونهر من الأحزان والألام والألاقي التي لا تخمدها الكلمات والعبارات.

أما عن الأصحاب فقد كان لهم دور رخو، فكانوا يلقون في وجهي بعض العبارات الميتة ويغادرون، كانت أسوئها: "هل تخاف من الظّلام؟"، فأجبتهم: "لا، أنا لا أخاف من الظّلام، أنا أخاف من النّهار والأضواء، وأعشق اللّيل والظّلام لكي أنام"، وأثناء جوابي قفز أحدهم وسألني: "هل تخاف من الموت؟"، فأجبته: "بالطّبع لا، أنا لا أخاف من الموت، أنا أخاف من الحياة، أنا أخاف من النّاس، فهم شياطين على هيئة البشر".

ختاماً، جاء الشيخ والقارئ والراقي والطبيب تلو الطبيب لكي يُعاين حالتي، وكانوا يحاورونني بهذه الكلمات: "محمد، أنت تصنع السّعادة، والسّعاده قرار؟"، ولا يعلم هؤلاء أني أجاهد نفسي في كل يوم وكل دقيقة، وشياطين الإنس والجن من حولي، والمجانين القابعين في رأسي وعلى رأسهم "الفيل" وأعوانه، وأخرج من بينهم في النهاية كجثّة تدور وسط محيط من سعادة الجميع التي لا أشعر بها ولا أستطيع أن أراها!

لم ولن يفهم الناس قصتي مع هذا الفيل العملاق، لماذا؟ لأنهم هم من ألقوه ورموه على ظهري وكاهلي... إن من أصعب ما يمكن أن يشعر به الإنسان في العالم هو أن يكون قلقاً بما يتعلق في القلق ذاته، ما أقصدُه هو أنه عندما ينتابك قلق معين بسبب شيء سيء معين يعترض حياتك، فان هذا الشيء سيجعلك قلقاً، وهذا القلق سيجعلك عاجزاً عن فعل الشيء، مما يؤدي إلى قيام إعصار من الأسئلة تدور بسبب قلقك، والتي ستلقيك بدورها في حلقة جحيم القلق، حيث يتحول القلق من فردي الى ازدواجي، لتصبح في النهاية قلقاً بخصوص ما يتعلق بقلقك!

لأول مرة في حياتي سأتحدث فيها عن نفسي، وسأشارككم تجربتي مع الاكتئاب...

لقد مررت ولا زلت أمر بأيام لا أعلم كيف ينجيني الله تعالى منها، ألم ووجع "جسدي وفكري" لا يمكن احتماله، حتى وصل بي الحال إلى الإعتقاد بأني فقدت السيطرة على عقلي وأني قد جُننت، وكنت أخاطب الله تعالى وأقول: "إلهي حبيبي ومولاي، يا من تفهمني.. إن كنت مُعيّن بالجنون أخبرني، وإن كنت مُشخص بالإكتئاب ساعدني".

كنت أتحدث معي وأقول: (يبدوا أني مصاب بالإكتئاب أو بالجنون، ولكني أستبعد أني قد جننت، لأني عندما سألت نفسي: "هل أنا مجنون؟" تبيّن لي حينها أني عاقل، ففي الحقيقة لا يوجد شخص مجنون يجلس على الكرسي ويسأل نفسه: "هل أنا مجنون أم لا؟!"، والدليل على ذلك هو عدم إستطاعتي طرح السؤال من الأساس! فالمجانين لا يسألون عن عقلهم هل هو بخير أم لا؟! لأن تصرفاتهم ومسالكهم ستثبت ذلك -أعتقد أن دماغ المجنون كطائرة مليئة بالوقود تطير طوال الوقت ولا يعرف أين يهبط بها- لكن أنا -وبحمدالله وفضله- أعقل عقلي وأدركه، وصحيح أنه لا يخلوا أحياناً من شطحات جنونيّة، وأحيانا أهبط به إلى أماكن غريبة وغير مفهومة، إلا أنني في النهاية وبحمد الله أهبط به، لذلك، أعتقد أني سقطت في قبضة "الإكتئاب"، أنا نازح ولاجئ في نفس الوقت في أرض هذا الفيل العملاق).

لأول مرة في حياتي سأتحدث عن مُعاناتي مع الإكتئاب، حيث سأدخل عامِ ال ١٤ وأنا ما زلت سجيناً في مُعتقله، ولقد وصفت اكتئابي بخاطرة عنونتها: **"عندما تتحول النملة إلى فيل!"**، وأقول فيها:

إكتئابي له أصوات عديدة، وله صور كثيرة، فأحياناً أراه صغيراً كنملة تسير على ظهر فيل، وفي اليوم التالي أراه كالفيل!

في اليوم الذي يكون فيه صغيراً كالنملة فإنني أتماشا وأتعايش معها، فأنهض من سريري وهي نائمة إلى جانبي، وأتناول طعامي على المائدة إلى جانبها، ثم أخرج من بيتي برفقة هذه النملة متجها نحو عملي، وأثناء مرافقتي لها نتبادل أطراف الحوار، فتارة نضحك وأخرى نبكي، وتارة نتفكر وأخرى يضربنا الجنون، نفعل كل شيء معاً، حتى أعود منهكاً إلى سريري وأنام بجانبها.

في اليوم التالي عندما أستيقظ من نومي أرى فيلاً ينام فوقي -لقد تحولت هذه النملة إلى فيل عملاق يجلس فوقي ويكتم أنفاسي- وعندما تتحول هذه النملة على هيئة هذا الفيل الضخم والكبير فإنني لا أستطيع النهوض من على سريري -لأنه ينام فوقي- ويدي ضعيفة ولا تقوى على دفع هذا الفيل المتربع فوق جثتي، وقدماي لا تقويان على حملي، فأتظاهر بالموت في هذا اليوم، لعلّ هذا الفيل يرأف بحالي ويشفق علي، علّه يدعني أنهض من على سريري.

وعندما يغادرني هذا الفيل الجاثم على صدري، وينطلق شهيري أسأل نفسي هذا السؤال: "هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن الإنسان هو السبب؟".

إكتئابي جعل الأيام البيضاء سوداء في عيني، فأنا أشاهد العالم عبر نافذة زجاجية قذرة وعريضة، وأرى الناس من خلالها كما وكأنني أشاهد فيلماً سينمائيّاً أحيك ضبطه بإحكام، الصوت يأخذ وقتا عندما أسمعه، والصورة تأخذ عمراً عندما أراها، وعندما أراها أسأل نفسي نفس السؤال: هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن الناس هم السبب؟

إكتئابي جعل المسجد في عيني قبراً مخيفاً، وجعل الجنة في عيني ناراً تحرق رغيفاً، وعندما تبخر الرغيف سألت نفسي نفس السؤال: هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن المشايخ هم السبب؟

إكتئابي جعلني أفتش عن من كانوا يدّعون أنهم أصدقائي وأصحابي وأحبابي، من أعطوني يدا تُسبح، وبالأخرى خنجراً ليذبح، وعندما ذبحوا فؤادي سألت نفسي نفس السؤال: هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن أصحابي وأحبابي هم السبب؟

إكتئابي أرغمني أن أغادر عملي الذي أحببت بسبب الذين أكلوا الكراسي وبلعوها، الذين هدموا المهنيّة وحرقوها، وعندما أصبحت رماداً سألت نفسي نفس السؤال: هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن أرباب العمل هم السبب؟

أيها العالم.... هل أنا السبب في إكتئابي؟ أم أن العالم هو السبب؟ وقبل أن يختم جسدي رحلته، هل سيقف الإكتئاب على جثتي، أم أنني أنا من سيقف فوق جثته؟!

هذه كانت قصتي باختصار مع هذا الفيل العملاق، وإنني أعتقد أنه لا يوجد أي وسيلة للنجاة منه سوى العودة إلى حظيرة الإيمان بالله وبقضائه وقدره خيره وشره، فقد قال تعالى: وأنه هو أضحك وأبكى (الاية ٤٣ من سورة النجم).

في النهاية:

نحن لسنا مرضى نفسيّين، نحن ضحايا لمرضى نفسيين...

قصص خيالية

من وحي خيالي

صوتي أقوى

هل سبق وأن شعرت بشعور غريب لا يمكن أن تتحدث به مع أحد، أو أن تصفه لبشر؟ هل أتاك صوت يخبرك بهذه المشاعر ولم تستطع السيطرة عليه والبوح به لأي كان؟ هل يمكن أن تسميها أصلاً -مشاعر- أم أنها شيء آخر!

سأله أحدهم: "هل تربيت في منزل عائلة متدينة أم ملحدة أم شاذة؟"، فأجاب: "لقد تربيت على ظهر جبل، كان الرب يمسك بيدي كي لا أسقط، وكان الشيطان ينتظرني أن أسقط، وكان صوتي يسافر بينهما وإذا به فجأة يقذفني نحو تلك الحرب".

لقد اندلعت حرب محلية شعواء في احدى الدول، وعجز عن اطفائها الجيش والسياسيين والمسؤولين، وكان هناك رجل اسود البشر ذو صوت جميل، اراد ان يطفئها بصوته، فصار يغني للمّ الشّمل فيها، فبعث خلفه سياسي وسأله: "كيف ستخمد نار حرب وتوحد الشعب بصوتك، وقد عجزت الشرطة والامن والجيش والحكومة والرئيس على إخمادها؟"، فأجاب المغني الاسود: "كل حكومة على وجه الأرض غير شرعية، وحكومتنا إحدى هذه الحكومات الغير شرعية، ولهذا السبب لن تسمع الناس لصوت الحكومة والسياسة، وستستمع لصوتي أنا -المغني الأسود- لأنني أعتقد أن صوتي باستطاعته اخماد حرب لا يمكن لأي سلاح في العالم أن يشعلها، وبينما يكون كل حزب وفصيل مشغول بكيفية قتله للآخر وتحطيم الوطن، سأكون أنا حينها على أنقاضه أغني لوحدة هذا الوطن".

فنجان قهوة

كانت هناك فتاة يتيمة بالثلاثينيات من العمر تقيم في غرفة تابعة لإحدى الفنادق الرديئة، أحكم الزمان قبضته على أنفاسها واشتد عليها الحال، حيث تلقت خبر فصلها من العمل، ومع مرور الوقت أخذ الفقر ينهش في وجدانها أكثر وأكثر، ويوم وراء يوم.

والدها كان رساما مشهوراً، ولكنه كان يعاني من مرض نادر وخطير، وكان قد أهدى ابنته لوحة من لوحاته كتذكرار وهي طفلة صغيرة، ووضعها أمانة لدى والدتها، وأوصاها في حال موته أن تُبلّغ الأمانة لطفلته تعبيراً له عن حبه لها.

تراكم عليها آجار الغرفة، وكانت تفكر في حلّ كي تدفع المبالغ المتراكمة عليها لكي لا ينتهي بها الحال مشرّدة في شوارع المدينة وفريسة لكلابها.

فكرت هذه الفتاة كثيراً، ولكن لم يكن أمامها أي خيار سوى بيع اللوحة التي أهداها ايّاها والدها، فاضطرت إلى عرضها للبيع، وعند اعلان المزاد حولها كانت تبكي، فلمح ذلك رجل يجلس في الشق المحاذي لها، وادرك أنها تبكي لوحتها، فما لبث إلا أن قام من على كرسيه وجلس بجانبها محاولاً التخفيف عنها.

أُعلن المزاد، وبدأت الأيادي تلوح فوق متون سماء هذه القاعة، كانت الشابة تتوقع أن يشتريها هذا الرجل الذي جلس بجانبها، ولكنه لم يفعل ذلك، وتم بيعها بعشرة آلالف دولار، وعند قرع الطاولة وإعلان اسم المشتري، التفت هذا الرجل إلى الفتاة المحزونة حينما بيعت لوحتها وقال لها: لم أستطع أن اشتري لك لوحتك لأني فقير، لكني أستطيع أن اشتري لك كوباً من القهوة.

الكلب الصهيوني

في ليلة سوداء تحت ضي القمر اجتمع كلب بفأر ودار بينهم الحوار التالي-

قال الكلب للفأر: "أتعلم أننا أصدقاء؟"، فرد عليه الفأر: "وكيف ذلك؟! ولم يحدث ولو لمرة واحدة في التاريخ أن كلباً يصاحب ويداعب فأراً سوى في المسلسلات الكرتونية -توم وجيري- فقط!"، فنكأ الكلب الفأر بخاصرته وأجابه: "أنا كلب مختلف، لقد اختارني واصطفاني الله في هذه الخصّيصة"، فرد عليه الفأر بدهشة: "الله اصطفاك!! وفي أي شيء اصطفاك الله؟"، فانحنى الكلب بجذعه وهمس بأذن الفأر قائلا: "أنا كلب صهيوني".

في هذه اللحظة انتشت علامات الخوف والسؤال على سحنة الفأر، حتى أنّ القمر فوقهم تعجّب وخفت نوره!

أكمل الكلب يقول: "أنا كلب صهيوني، لدي قطيعي الخاص الذي يمتثل لي ولأوامري، وأنت فأر ماكر ذو نزعات تخريبيّة، وأنا أحتاج إلى مكرك وخبثك، وفي المقابل سأجعلك وزيرا لدي"، وافق الفأر فوراً على هذا العرض، وصار كالكلب يحوم حول أرجل الكلب الصهيوني، ثم طأطأ رأسه بينهما.

نقر الكلب الصهيوني الفأر على رأسه، وختم حديثه معه بهذه الكلمات: "أرأيت أننا أصدقاء، نحن عائلة واحدة... نحن حيوانات".

قانوني أنا

اجتمع مسؤولان من الطراز الرفيع -أحدهم أمريكي والآخر إسرائيلي- في احدى المطاعم النائية للبحث في مسألة كيف للمحاريث أن تصبح أسلحة وكيف للمناجل أن تصبح رصاصاً.

جلسوا على طاولة متطرفة قليلاً، وراحوا يحتسون الخمر ويدرسون مسألة تسليح قرية بدائية سكانها يشبهون طرزان، وجرى بينهم الحوار التالي:

قال الأمريكي للإسرائيلي: "ليس من الأخلاق إعطاء الأسلحة لهؤلاء البدائيين والمساكين؟! إنهم ليس لديهم تاريخ أو معرفة بالتكنولوجيا أو حتى أي خبرة في استعمالها؟"، فأجابه الإسرائيلي: "إن المجتمع الخاص بهم سينظم المسألة في نهاية المطاف.. لا تقلق"، فرد الأمريكي: "عن أي مجتمع تتحدث؟ لن يتبقى منهم أي أحد على قيد الحياة"، فرد الاسرائيلي: "إنهم أصلا ليسوا على قيد الحياة، انظر إلى أشكالهم ولباسهم ومساكنهم، كلها غريبة وعجيبة، انظر إلى حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم والتي لم يسمع بها أحد أو يراها أي شخص في هذه المجرة! إن البقاء للأقوى يا صديقي، هكذا يسير للعالم"، رد الأمريكي: "نعم.. إنه قانون الطبيعة القاسي"، فنظر إليه الإسرائيلي نظرة رخوة، ثم ابتسم في وجهه ابتسامة باردة وقال له: "إشرب كأس الخمرة هذا وانسى لعلك تستيقظ من حماقتك، إنه ليس قانون الطبيعة، إنه قانوني أنا ".

أنا الحرامي

في إحدى الفنادق يقيم شاب بالثلاثينات من العمر، رفع هذا الشاب سماعة الهاتف واتصل بمركز الشرطة، فرد عليه الضابط وقال له: "من معي؟"، فأجاب هذا الشاب: "أنا الحرامي"، فرد الشرطي: "أي حرامي؟"، فرد الشاب: "أنا الحرامي الذي تبحثون عنه، أنا من سرق العشرة بنوك قبل إحدى عشرة سنة مضت".

ضحك ضابط الشرطة حتى سقط عن كرسيه، ثم قام بتشغيل مكبر الصوت، فسمع القسم بأكمله مكالمة الحرامي، وأخذوا الموضوع باستهزاء وليس على محمل الجد.

تحدث الحرامي بنبرة حادة: "لم تضحكون؟"، فرد الضابط: "هل أنت جاد؟"، فقال له الحرامي: "نعم، وسأسلّم لنيافتك المبلغ كاملاً -٨٠ مليون دولار- وسألّم نفسي، ولكن بشرطين"، فردّ الضابط مُتعجّباً: "وما هما"، فردّ الحرامي: "الأول هو أن أسجن لمدّة سنتين فقط، والثاني أن تسمحوا للنّاس بزيارتي".

تملّك الإندهاش قسم الشرطة بأكمله بما فيهم الضابط، وسأل الحرامي: "وما الذي يدفعك لكي تسلم الأموال وتزج بنفسك خلف القضبان، ونحن لا نعلم أدنى معلومة عنك، وبإمكانك الهرب بهذا المبلغ الكبير والتمتع به حتى آخر يوم في عمرك؟!"، فأجاب الحرامي: "إنها امرأة"، فذُهل الجميع! وردّ الضابط: "لابد أنها إمرأة تستحق هذه التضحية، هل تحبها إلى هذا الحد؟!"، فرد الشاب: "نعم، أعشقها".

تنحنح الضابط بعدها وقال: "هل هذا جواب نهائي؟!"، فردّ الحرامي: "نعم، لقد عاهدتني أن تكون لي إن فعلت ذلك، وسأفعل ذلك ولكن على شرط أن تسمحوا لها بزيارتي، وأن أسجن لعامين فقط كي أكمل ما تبقى من عمري معها"، فأجاب الضابط: "لك ذلك".

ومضى العامين دون أن تتفقد الفتاة هذا الشاب، أو أن تسأل عنه، ولم تأتي لزيارته كما وعدته، وعند انقضاء فترة المحكومية خرج من السجن كالمجنون يبحث عنها، ولكن كانت كما وكأنها حلم تبخر من هذه الحياة.

نادلة المطعم

ذات يوم وقفت سيارة فاخرة بإزاء مطعم للوجبات السريعة، وكان خلفه طابور من الزبائن الذين يستقلون مربكاتهم لطلب وجباتهم، كانت إحدى خدمات هذا المطعم أنه يقدم الوجبة للزبون دون أن يترجل من مركبته من خلال نادلة المطعم، وكانت فتاة تبلغ من العمر ١٥ عاماً.

طلب هذا الزبون وجبته وانتظر بمركبته، فجاءته نادلة المطعم مسرعة وهي تبتسم بطلبه، وكان ساندويش همبرغر وكيس بطاطا صغير وكوب من العصير.

ارتشف هذا الزبون من عصيره فوجده دافئاً وليس بارداً، فما كان منه سوى أنه دلف العصير في وجه النادلة وألقى الساندويش والبطاطا على ثيابها، وراح يصفعها بالكلمات.

لم تبدي هذه النادلة أي ردّة فعل سوى أنها ظلّت تبتسم في وجه هذا الزبون وتعتذر له، وأخذت تزيل الطعام المتناثر من على ملابسها، في المقابل أخذ هذا الزبون يرفع من وتيرة صوته حتى الصراخ، ثم بصق عليها وغادر المكان.

شاهد طابور الزبائن بأكمله هذا الموقف..

تقدّمت المركبة التي تليها، وكان زبونا آخر يريد أن يطلب وجبته، فاستقبلته هذه النادلة وهي تبتسم وفي عينها دمع راقد يحاول أن ينزلق غصباً على خدّها، ولكنها منعت ذلك، وظلت تبتسم في وجه هذا الزبون وتنظف ثيابها، ثم سألته: "ماذا تطلب يا سيدي؟"، ولكنه ظلّ واجماً ولم يطلب أي شيء، وإنما مكث وقتاً قصيراً وهو ينظر اليها، ثم سألها: "لماذا فعل هذا؟ إنه شخص عديم الأخلاق!"، فأجابته وهي تبتسم: "أنا معتادة على هذا الصنف من الزبائن، لا تقلق، ماذا تطلب يا سيدي؟"، فرد عليها: "كيف صبرتِ هذا التصرف؟ وما الذي يجبرك على الإستمرار في هذا العمل وأن تتحملي هؤلاء الحيوانات؟"، فأجابته: "أنا مشرّدة يا سيّدي، ولا يوجد لي فرصة أخرى للعمل في أي مكان آخر سوى في هذا المطعم".

فأخرج هذا الرجل من جيبه ١٠٠ دولار وقال لها: "إقبلي هذا المبلغ مني"، فقالت له: "إنك لا تعلم ماذا تصنع وتغير هذه ال ١٠٠ دولار في حياتي، ولكن لماذا تجود بها علي؟ هل هي شفقة على حالي، أم تصبير لي لما حدث؟"، فأجابها: "لقد منحتني درساً مجاناً في هذه الحياة لم أخبرهُ في كل المدارس والجامعات والمقررات التي طالعتها!"، فقال له النادلة: "وما هو؟"، فأجابها: "الصبر".

نقود الشحاد

كنت أعمل كمراسل في إحدى المولات الكبيرة، لا أخفيكم أن دخلي محدود، وفي معظمه أشتري الخمر وأتعاطى المخدرات، ولكني كنت كأي شاب أحلم بالإرتباط بإحدى الفتيات الجميلات.

كنت في وقت استراحتي أراقب الفتيات اللواتي يدخلن ويخرجن من المول وكأنهن عارضات أزياء، الشقراء والحمراء والسوداء، السمينة والرفيعة، المشدودة والمربوعة، أرسل نظري بين جذوعهن وقوامهن، وإذا بهذه الحسناء تفتح الباب، وما أن نظرت إليها حتى سرقت قلبي، وقلبت كياني رأساً على عقب، فتتّبعت خطواتها حتى علمت مسكنها.

عند حلول الليل جلست في صالة منزلي كي ألف الحشيش، ثم شربته، وفي غضون دقائق قفز بي الى وجهها، وتخيلت نفسي برفقتها، وأمسك يدها، كانت لحظات جميلة.. وبعد انتهاء مفعول الحشيش وعودة عقلي لي قلت لنفسي: "لا بد أن أصل اليها".

كانت تتردّد كثيرا على المول الذي أعمل به، وفي احدى الأيام حضرت كعادتها، فابتسمت في وجهها دون وعي مني، وتجرأت واقتربت منها، فبادلتني الإبتسامة وكسرت المسافة هي الأخرى، وتحدثنا معاً، وانتهت هذه اللحظة بحصولي على رقم محمولها.

تحدثنا في الليل معا، وتعرفنا على بعضنا أكثر، وأخبرتني المزيد والمزيد، ومن جملة ما أخبرتني به أنها لا يمكن أن ترتبط بمتعاطي، فسألتني: "هل تشرب المخدرات؟"، فقلت لها: "طبعا لا، فهي مضرة بالصحة"، فسُرت جدا بجوابي، ومدحتني، وكانت هذه فرصتي اني علمت انها -عزباء- وهذه خطوة إيجابية لكي أخرج معها في موعد، اما السلبية هي انني أتعاطى المخدرات!

طلبت منها في ذات يوم أن نخرج في موعد، فوافقت، وهذا أسعدني، أما الذي أحزنني أنني صرفت معظم نقودي على الحشيش! ولم يتبقى معي سوى دولارين، فقلت في نفسي: "ستفرج".

خرجنا معا، وعند اقترابنا من احدى البسطات لتناول البوظة كان هناك شحّاد -متسوّل- يمد بكأس فيه بعض النقود نحوي لكي أتصدق عليه، فقلت في نفسي: "هذه فرصتي"، فأخرجت من جيبي الدولارين، ومددتها نحو كأس الشحاد، ووضعتها بداخله وأخرجت عشرون دولار عندما سحبت يدي بدلاً منها دون أن ينتبه المسكين.. وظل يدعوا لي!

عزمت هذه الفتاة الجميلة على حسابي، واشتريت لي ولها البوظة بنقود الشحاد، وأثناء تناولنا لها نظرت الي هذه المحبوبة بفخر وقالت لي: "كم هذا جميل، أنت لا تتعاطى المخدرات، بالإضافة الى أنك شخص كريم وإنساني، يبدوا أن اليوم من باكورته سيكون جميل، ويبدوا أننا سنتقدم خطوة في علاقتنا، هل أنت موافق؟"، فأجبتها: "نعم بالتأكيد".

فتاه على الرّصيف

في إحدى الأيّام مضى رجل إلى السّوق، وأثناء تجواله لاحظ هذا الرّجل وجود فتاة في الثلاثينيات تجلس على مقعد خشبي في الشارع بثيابها الرثّة ولونها الشاحب وكأن الدّنيا قد أكلتها، فرقّ وحدِب قلبه لحالها، فجعل يسارقها النّظر، ولمّا نظر إليها مباشرة بادلته النّظرات بعينها المكسورة والمدموعة، وإبتسامتها الخفيفة والهادئة والحزينة، فقصدها وجنّح نحوها، ووقف أمامها وسألها: "ألك حاجه؟"، طأطأت رأسها وقالت له هامسة: "لم أذق الطعام منذ ٣ أيّام، وأنام على هذا المقعد الخشبي من أسبوع".

أشفق على حالها هذا الرّجل، وأخذ من جيبه بعض المال، ومدّ به لها، ولكن العجيب أنّها رفضت، فألحّ عليها أن تأخذ المال وأن تشتري لها بعض الطعام والحاجيات، وبعد محاولات عديدة أخذته، وشكرته بإفاضة، وإنطلقت.

جعل الرجل يراقبها ويسير خلفها خلسة، ولكن المثير في القصة أنّها لم تشتري لنفسها طعاماً ولا شراباً -ولا أي شيء- وإنّما سعت إلى محل لبيع الكلاب.

كان ينظر إليها هذا الرجل بإستغراب وإستعجاب ويحدث نفسهُ: "ما هذه الفتاه الغريبة؟!".

إشترت هذه الفتاة بكلّ المال الذي أعطاها إياه هذا الرّجل كلب أبيض جميل، وهُنا جُنّ الرجل، واستفاض غضباً، وقال لنفسه: "لقد استغفلتني هذه الفتاة"، ركض نحوها، وقال لها: "لماذا إشتريت بالمال هذا الكلب؟ لماذا لم تبتاعي لك طعاماً أو لباساً يسترك من حرّ الشمس وبرد اللّيل؟".

فأجابته: "كلّ ما أريده يا سيّدي في هذه الحياة صديق أحدّثه، صديق يسمعني ويصغي إلي، صديق أبوح له بكلّ أشجاني وأحزاني، صديق أبكي على كتفه وأحتمي تحت جناحه، صديق يرافقني مراحل حياتي ومطبات عمري، عمري الذي ألقاه والدي في الشارع، وهتكه حبيبي باسم الحب، وطعنه أصدقائي وزملائي باسم المصلحة"، ثم وضعت يدها بيد الرجل وقالت: "إن هذا الكلب يا سيدي -حيوان- ولكنه أرق وأرحم من الإنسان بالإنسان".

مدير الشركة

كنت قد قابلت على وظيفة في إحدى الشركات المرموقة والتي لها وزنها ليس على الصعيد المحلي وإنما العالمي، وكان دخل هذا الموقع الذي أقدمت عليه ٢٠٠٠ يورو شهريّاً، انعقدت اللجنة ولم يكن فيها سوى رجل واحد فقط، وهو مدير الشركة شخصيّاً، جلس قِبلي على الطاولة وظل ينظر إلي لقرابة نصف ساعة، ولم يسألني أي سؤال، وقبل انتهاء المقابلة تكلم المدير وسألني سؤال واحد فقط، وهو: "لو أنني طلبت منك أي طلب هل ستقوم به؟"، فجاوبته فوراً: "نعم" -الراتب يستحق- فقال لي: "مبروك، الوظيفة لك".

نهضت كالمقروص، هذا هو! بهذه البساطة! سؤال واحد فقط وسأحصل على ٢٠٠٠ يورو شهريّاً! فسألته: "متى أبدأ"، فأجابني المدير: "الآن"، أمطرته بالأدعية من فرحتي، فربت على كتفي وقال لي: "لا تفرح كثيراً".

وقعت على عقد العمل، وشرعت به، وكنت أقوم بكل ما يطلبه مني -أعمال مكتبية في مجال تخصصي وأخرى لا علاقة لي بها- كأن أحضر له فنجان القهوة الى المكتب مثلاً، وأن أفتح له باب سيارته، وأن أوصل طلباته لمنزله بمركبتي، وأن أجلس مع أطفاله حينما يريد أن يخرج هو وزوجته لإحدى المراقص والملاهي، حتى وصل الأمر بي إلى أن أنظّف حذائه قبل أن يلبسه.

لا أنكر أن هذا المدير كان يحبني جداً، وكان يمنحني زيادة إضافة إلى راتبي الشهري، ولكني كنت أشعر أني عبد لديه، وفي يوم من الأيام وأنا في طريقي نحو العمل، تعرضت للضرب العنيف من قِبل لصوص الطريق حتى أغشي علي، وسرقوا كل ما في جعبتي.

حملني أحد المارّة للمشفى، وخضعت للعلاج حتى تشافيت، وعندما عدت الى العمل شرحت لمديري ما حدث، فقال لي: "هل رأيت وجه أي أحد منهم؟"، فقلت له: "نعم"، فقال لي: "وكيف هو"، فوصفته له.

وبعد بضعت أيام ذهبت للعمل كعادتي، وعندما وصلت واذا بالمدير يستقبلني وهو يبتسم، ويقول لي: "وجدته"، قلت له: "من؟"، قال: "الذي ضربك وسرقك"، قلت له: "جميل، شكراً، هيا نبلغ الشرطة"، فقال لي: "كلا، ستأخذ حقك بيدك"، فقلت له: "وكيف؟"، فقال لي: "اتفقت مع رجالي استدراجه الى المكان الذي ضربك وسطى عليك فيه لتأخذ حقك منه هناك"، فقلت له: "مستحيل، لا يمكن أن أفعل هذا!"، فقال لي: "يجب عليك فعل ذلك، وهذا ليس خيار، ولا تنسى أنك عندما مضيت على عقد العمل كان أحد بنوده أن تفعل كل ما أمليه عليك وأطلبه منك"، فقلت له: "نعم، أنا وافقت على كل ما تطلبه مني، ولكن ليس أن أسرق وأضرب!"، فقال لي: "بني.. إن لم تفعل ذلك سأفعل أنا بك ذلك".

بعد مرور عشرون عاماً على فعلتي، أنا اليوم رئيس عصابة ومن كبار التجار في المدينة.

في الثّالثة والتّسعون

كنت صغيرة، وكان أمام بيتنا باحة خضراء تفوح منها رائحة العطر والياسمين، حديقتي فيها تحضن أزهاري، والعصافير حولها تسكن أشجاري، وأصوات الموسيقى الجميلة تنبعث من بيوت جيراني، وقصص أهلي ومغامراتهم التي لا تنتهي، الجميع كانوا هنا معي وجنبي وحولي.

زوجي كان هنا أيضاً، كم كنت أحبّه، لأنّه كان يشعرني بأنّي شمسه وقمره وحضنهُ وموطنهُ، كان لا يرى العالم من حولنا لأنّه يراني العالم بأسره، كنّا أجمل عصفورين، نطير معاً ونحلق في متون السماء، تشاركنا قهوتنا، وبنينا منزلنا، كان كل شيء جميل في البداية حتى ابتلعت الأرض زوجي ومات، وترك لي حصيلة من الذّكريات.

بعد سنوات من زواجنا خرج زوجي من البيت ليذهب للعمل، ولم نكن نعلم ما يخفيه القدر لنا، أثناء عمله حصل شجار بين زميليه، فذهب لكي يُنهي المشكلة القائمة بينهما، ولكن الخلاف إحتد فقام أحدهما بإطلاق النار، فقتلت هذه الرّصاصة زوجي!

رحل زوجي دون مقدّمات، ودون أن يودّعني، ودون أن يخبرني ماذا أفعل في سنوات عمري المتبقية لوحدي من غيره.

أنا الآن في الثّالثة والتّسعون من العمر، أنظر من نافذتي الى باحتي التي انحنى ظهرها وشابت وأصبحت شاحبة الوجه، حيث اصفرّت حديقتي وانطفأت أزهاري، وغادرت العصافير أشجاري، وانقطع صوت الموسيقى من بيت جاري.

في الثّالثة والتّسعون من العمر قد يرمي بك الزّمن لتكون وحيداً، ولكن المؤكّد أنّ هناك العديد من الذّكريات التي لن تتركك وحدك، وستتهاوى في عقلك كما ندفات الثلج التي تسقط من السماء في فصل الشتاء.

ولكنّي صدقاً لا أعلم هل هذه الذّكريات من الجميل أنّها بجانبي في أرذل العمر، أم أنّها عذاب من نوع آخر!؟

أن تعيش مسنّاً وحيداً في زمن تتبدّل ألوانه يوماً بعد يوم، وتتغيّر معالمه وتضاريسه، فلا الزّمان زمانك، ولا الأماكن هي تلك التي كنت تعرفها، وجميع من تعرفهم قد غادروا الحياة!!

منذ مدّة طويلة لم يطرق بابي أي زائر أو أي سائل، إنتظرت زمناً بعيداً لكي يقرع أحدهم بابي، وفجأه دخل علي زائر دون أن يطرق الباب! سألته وأنا أنتفض: "من أنت؟"، ولكنّه لم يجيب، فأدركت أنّه ذلك الضيف الذي إنتظرته طويلا، فقلت له: "لماذا جعلتني أنتظرك كل هذه المدّة؟"، فإبتسم في وجهي، وأمسك بيدي، وطرنا معاً.

قبلة أورفيوس وأوريديس

قال لي أحد المتابعين: "أخبرني قصة يا محمد نبيل كبها"، فقل له: "وأي قصّة؟"، فقال لي: "أخبرني قصة نهايتها سعيدة"، فقلت له: "ليس هناك قصة نهايتها سعيدة"، ثم تنهدّت ورفعت رأسي إلى السماء وأردفت: "كل القصص حزينة، وبالذات تلك التي تكون بدايتها سعيدة".

فردّ على هذا الشاب وقال لي: "إذن، أخبرني قصة بدايتها سعيدة وأوقفها في المنتصف"، فكّرت في قصّة ثم قصصت عليه هذه الحكاية الخياليّة:

كان يا مكان، في بقعة على ظهر هذا المركب الأزرق الذي يعوم داخل ذلك السائل فوقنا، لم تكن الأسماك والحيتان تسبح، ولا العصافير تزقزق، ولا الأرنب يقفز، ولا الكلب ينبح، الكائنات الحية فقدت خصائصها وأصواتها، حيث كان عالماً آخر لا يُشبه عالمنا.

كانوا يتأهبون لحضور حفل زفاف كانت فيه قبلة على وشك الإنفجار "قبلة أورفيوس و أوريديس".

أدرت بجذعي نحو هذا الشاب وسألته: "أتعرف من هم أورفيوس و أوريديس؟"، فأجابني: "لا"، فقلت له: "أورفيوس كان شابّاً ذكيّاً، و أوريديس كانت شابّة فاتنة الجمال، وقع فؤادهما في الغرام، وانتهت العلاقة بالزواج".

انتفض الشاب وقال لي: "هكذا فقط! انتهت القصة قبل أن تبدأ! ما هذه القصة؟!"، فقلت له: "رويداً رويداً، نحن في الجزء الأول منها".

انتقلت للجزء الثاني منها، وأكملت أقول: "كانت قصّة حبهما لا في الخيال ولا في الأساطير، ولا يوجد هناك وصف لحالة الهِيام التي كانت تُغلّفهم حتى توفّيت أوريديس"، فقاطعني هذا الشاب على عُجالة وقال لي: "هذه قصّة حزينة!"، فقلت له: "حِلمُك يا أخي، إنتظر، تمهّل، فأنا لم أصل إلى المنتصف بعد".

تلبّك هذا الشاب وقال لي: "حسناً، أكمل"، فتابعت: "دخل أورفيوس في حالة حزن شديدة على وفاة زوجته -أوريديس- انتهت به الى الوقوع في مصيدة الإكتئاب، فتقوقع على نفسه، واختلطت عليه الأفكار، حتى سمع ذلك النداء الصاعد من الأسفل الذي يخبره –لوسيفر بانتظارك كي يعيد زوجتك للحياة- وتكرّر هذا النداء أكثر من مرّة، حتى اعتقد به أورفيوس.

قرّر أن يهبط إلى الجحيم ليتوسل -لوسيفر- كي يعيدها إلى الحياة، وبعد توسّله وتقديم التنازلات والسجود له وافق -لوسيفر- ولكن بشرط، وهو أن يبيع أورفيوس روحه له، فوافق أورفيوس، وعقد صفقته مع لوسيفر، فأطلق لوسيفر في المقابل زوجة أورفيوس -أوريديس- للحياة.

لم تسعهُ الفرحة وهي تتنفس أمامه، وأمسك بيدها، وطار الزوجين معاً من الجحيم حتى هبطوا على صحن الأرض، ومن هنا بدأت رحلة إغواء ووسوسة الإنسان للإنسان من خلف هذه القبلة، حيث أنجز لوسيفر المهمة من خلالهما على الأرض دون أي تعب أو مجهود، أو حتى أن يكلف نفسه عناء الصعود إلى الأرض لإنجاز المهمة، فقد أنجزها أورفيوس و أوريديس على أكمل وجه، وجيّشوا أسرابا من أبناء جنسهما، فاحذر أن تكون من بينهما أيها الشاب وأنت لا تعلم".

ئيل في الطريق

+١٨

لقد تذوق طعم الدم في كل العالم، لكن دم -المسلم- كان المفضل إليه طبعاً.

قبل قرن من الزمن وفي مكتبة ولد "ئيل"، ولأول مرة في التاريخ يحدث أن تكون القابلة ذكراً وليست أنثى، فقد كانت يد "آرفور" السبب بجلبه إلى هذا العالم.

كبر "ئيل" وأصبح ضابطاً كبيراً في الجيش، ولكنه كان نرجسي وسيكوباتي ملعون، يحب أن يرى أحكام الإعدام وألوانها -تجرّع السم، الكرسي الكهربائي، الخازوق، الطهي في الصندوق الحديدي، الشنق، الحقنة المميتة، الرمي بالرصاص، الخنق، الغاز الخامل، ولكن الألذ كان بالنسبة له هو قطع الرؤوس.

في الصباح تفوح منه رائحة الدين، أما في الليل تفوح منه رائحة النبيذ..

عندما يُسدل الليل أستارهُ على هذا الكوكب كان يظهر بوجه دميم آخر، حيث كان يذهب الى الحانات والبارات لينهل من الخمر حتى يسكر، ثم يلاحق النساء وبائعات الهوى في الملاهي والطرقات ويداعبهن ويتحرش بهن، حتى تقبل به احداهن، فيصحبها الى منزله ويقوم بضربها أولاً حتى يُعييها الألم وتخور قواها ثم يضاجعها..

في كل ليلة عندما يستلقي القمر في حضن السماء كانت تستلقي إحداهن في حضنه الموحش والبارد.

وفي احد الايام قام بتعذيب احدى بائعات الهوى، حيث قيّد يديها في رأسيّة السرير، وكبّل أقدامها في نهايته، وأخذ يضربها بسياط مصنوع من الجلد حتى أحدث كدمات على ظهرها، ثم صعد فوقها وراح يلكمها على وجهها حتى انفجرت الدماء من كل مكان فيه، كانت تصرخ وتبكي وتستغيث حتى ماتت، إلا أنه لم يكترث، بل قام بتذوق وابتلاع دمائها التي تقطر منها.

عرف الجميع قصة بائعة الهوى التي ماتت بين يديه تحت التعذيب، وذاع صيته النجس أرجاء المنطقة،.

علمت بائعات الهوى الوجه الحقيقي لئيل، فصاروا يتحاشونه ويتجنّبنه، وفي إحدى اللّيالي ثمل ئيل حتى فقد السيطرة على نفسه في رغبته بإحدى الفتيات المراهقات، إلا أنها رفضته، فقام بضربها بعصى من حديد حتى قتلها، ثم حملها واتجه بها نحو منزله، وعندما وصل وضعها فوق مائدة الطعام، ثم قطعها، وغلفها ووضعها في قلب ثلاجته، أما عن دمائها فقد سكبها في أواني، وكان يشرب منه وقت السحر بصحبة آرفور.

ئيل كان لقيطاً، وكان غير محبوب ولا مرغوب به، ولم يكن له أي صديق سوى القابل -آرفور- الذي جاء به الى هذا العالم، يراه بمكانة الأب، بل أكثر من ذلك، فقد كان -آرفور- بمثابة الجدار الذي يستند عليه ئيل وقت المِحن.

وفي احدى الأيام مات آرفور، فغضب ئيل على موته غضباً شديداً، وأثناء جنازته قام بقطع رأس الحاخام الذي تلا الصلاوات عليه في الكنيسة، ثم أخذ رأسه وذهب به إلى قبر الفتاة التي ضاجعها وقتلها، فاستخرج جثتها وقطع رأسها وإستبدله برأس الحاخام.

ثم قرر بعدها أن يغزوا العالم بأسره، وبدأت رحله في التفريق بين الناس، وتخريب الأوطان، وسفك دماء النساء والشيوخ والأطفال والرجال والرضع.

الأخيار والجدار

قبل ١٠٠ عام سقط العالم في الهاوية، وظهر الفساد في البر والبحر والجو، وكأنه قمامة منتنة وقبيحة المنظر -إجرام وسرقة وقتل واغتصاب وظلم وفقر- فوضى عمت العالم وأصبح في حالة يرثى لها.

عُدمت المباني والبيوت، وانتهت التكنولوجيا والطاقة، وشح الطعام والشراب، ومزقت الكتب السماوية ورُفع الدين، وتقلّص عدد السكّان من حول العالم، ولم يتبقى إلا القليل منهم، وهؤلاء القلة إنقسموا إلى قسمين: الأخيار والأشرار.

دارت المعركة بين الفريقين على البقاء، فاقترح أحد الأخيار بناء جدار للحفاظ على من تبقى منهم، وهبّوا برفع أعمدة عالية البهاء من حولهم، ونصبوا الجدار ليقيهم من مناجل وأسهم وسيوف الأشرار.

كان هناك إيمان وقانون يضبط الإنسان داخل هذا الجدار، فمن رضي بقي في الداخل، ومن سخط ألقي بالخارج -الصالح يبقى داخل الجدار والطالح يرمى خارجه- وبعد عناء طويل تم غربلة الجميع وإلقاء المجرمين والفاسقين والقتلة خارج الجدار، فلا يمكن في يوم من الأيام أن تصبح البومة حمامة.

أمّا المشهد في الخارج فقد ثوت على مائدته الفاحشة والبهيمية، حيث كان هناك رصيف للمتعاطين، ورصيف للمدمنين، ورصيف للزناة، ورصيف للمجانين، ورصيف للكفرة والملحدين، أرصفة عديدة مُعنونة لكل مجموعة.

وكان هناك شخص مفصوم -طيب وشرير في ذات الوقت- يعرف كل القصص التي تجري خلف الجدار وخارجه، كانت وظيفته هي توصيل الطلبات بينهم دون أن يُسمح له بالدخول داخل الجدار، خوفاً من أن تكون عدوى الشر قد نقلت له من قبل الأشرار، ففي الخارج لا يرى سوى الدماء والقاذورات وبقايا الطعام المنتهي الصلاحية.

وفي يوم من الأيام تمت دعوته للدخول داخل الجدار، كي يقدموا اللباس والطعام له لإيصاله للأشرار بالخارج، فدخل ورأى الجنة هناك -العطور الفخمة، والطعام الكثير، واللباس الفاخر، والمياه النظيفة- والأهم من ذلك كله -الناس- كانوا على دين وأخلاق وفي قمة الصلاح والتقوى، حيث لمس كل أوجه الإحترام والإهتمام من قبلهم.

ولكن الشيطان لا ينفك عن إزعاجه للإنسان، فقام بزرع أفكاره السامة في دماغ هذا الشخص المفصوم من أجل السيطرة على المكان.

وبالفعل، في منتصف الليل تسلل خلسة وفتح باب الجدار للأشرار، والذين اقتحموا بدورهم المكان كالزومبي، وخرّبوا ودمّروا كل شيء.

وفي النهاية لم يتبقى هناك أي مكان لهذا الشاب لكي يقوده أو يسيطر عليه، فلقد دُمّر المكان وما فيه عن بكرة أبيه، وأصبح الداخل كالخارج تماماً.

رأيت عنكبوت

ذهبت ماسة لزيارة صديقتها ألين في المشفى، كان وجهها شاحب وكانت في حالة صعبة -تعاني من ارتفاع في درجة حرارة جسدها، وتتعرّق بشدّة، وآلام في عظامها ومفاصلها- فسألتها ماسة: "ما الذي أصابك؟"، فردّت ألين: "ذهبت لأتسلق الجبال كعادتي عند نهاية الأسبوع في إجازتي بصحبة صديقتي جوليا، صعدنا الجبال، ومررنا بالنهر، ثم تهنا في الطريق، ولم نكن لنهتدي سبيلنا كيف لنا أن نخرج من هذا التوهان، فاضطررنا للتخييم ليلا هناك".

أكملت ألين: "في الصباح تابعنا المسير أنا وجوليا، وفي طريقنا اخذنا استراحة على ضفة النهر، تناولنا طعامنا وشربنا الماء، ثم انطلقنا، ومشينا مسافات طويلة حتى خارت قواي وأنهكني التعب، اتكأت على الشجرة، وعلى حين بغتة شعرت بقلبي يخفق فجأة، وتملّكني التعب والإعياء، فأردت أن اشرب الماء لأني شعرت بجفاف حلقي أيضا، ولكني لم اجد القارورة في حقيبتي -يبدوا انني نسيتها على ضفة النهر- وفجأة سقطت أرضاً، ولا أعلم كيف وصلت إلى هنا!".

جوليا: "لقد طلبت المساعدة، والحمدلله لب النداء رجلان -صامد وقائد- كانا في الجوار، وحملوك الى المشفى".

اندفع سؤال من فم جوليا على نحوٍ مرتبك: "ألين، لقد كنّا معاً! حاولي أن تتذكري، مالذي حدث؟"، فأجاب الطبيب مصطفى: "انها تعاني من اعياء شديد، لنتركها ترتاح قليلاً".

غطّت ألين في النوم، وكانت تهذي بكلمات بعضها مفهوم والآخر لا، وفي هذه الأثناء كانت جوليا تجلس مرتبكة بجانب سرير صديقتها، وماسة تطوف حوله، وإذا بها تهذي وتقول: "رأيت عظماً، وكانت لعنق حيوان على ما يبدوا، أعتقد أنها رقبة كلب، كان مكتوب عليها اسم -خالد- نعم اسمه خالد".

انصدم ماسة من هذه العبارات! وشكت في جوليا على الفور، فما كان منها سوى أنها اتصلت بالشرطة لفتح تحقيق في المسألة، فحضرت الشرطة على عجالة، وعندما استفاقت ألين من نومها سألها المحقق عز الدين: "لقد قلت كذا وكذا أثناء نومك، فهل هذا صحيح؟"، فأجابت ألين بصوت خافت يرتجف: "نعم"، فقال لها: "وماذا بعد؟ هل هناك شيء آخر ترغبين بإضافته؟"، فأجابت ألين: "لا"، فرد المحقق عز الدين: "لكن ماذا لو كانت هذه العظمة هي رقبة انسان اسمه "خالد"!؟ هل كان هناك أي شيء بالقرب منها؟"، ألين: "نعم، كان هناك كوخ صغير"، المحقق عز الدين: "هل كان فيه أحد؟"، ألين: "لا نعلم، فنحن لم ندخله -أنا وجوليا- أبدا"، وهنا تفاقم ارتباك جوليا، وأصبح ملحوظا لدى المحقق عز الدين.

قال المحقق عز الدين: "هل لاحظتم وجود أي شخص؟ أو أي ملامح لحياة هناك؟"، ألين وجوليا: "لا، لم يكن هناك أي أحد، ولا نعلم ان كانت هناك حياة أم لا".

وفجأة صرخت ألين: "رأيت العنكبوت!! عند سقوطي على الأرض بجانب الشجرة وقبل أن أفقد وعيي رأيت عنكبوت!".

وبدأت سيّال الأسئلة ينهمر في عقل ألين: "هل يعقل أنها لدغتني!؟".

عندما سمعت ماسة ذلك، ذهبت إلى مكان الحدث لكي تتقصى أثر العنكبوت، وعندما وصلت إلى الشجرة نبّشت فيها فوجدت آثار لبيت عنكبوت مُدمّر! أمعنت النظر فيه فوجدت مالم يكن بالحسبان، وجدت صغار العنكبوت قد هرسوا وماتوا جميعاً!

لقد كان انتقام العنكبوت، لقد لدغت العنكبوت صديقتي ألين لأنها هدمت منزلها وقتلت أولادها!!

أنـا آسف

في إحدى الأيّام كانت سيّد تدعى -ليلى- تقود مركبتها إلى المدرسة لإيصال إبنها -عمر- وكان لدى عمر فقرة صباحيّة في الإذاعة المدرسية في السابعة صباحاً، ولكن والدته -ليلى- تأخّرت عن إيصاله على الموعد، فقامت مديرة المدرسة -رنيم- بالإتّصال على ليلى لتستوضح منها عن سبب هذا التّأخير؟ فقالت لها ليلى: "أعتذر عن هذا التأخير، وأنا بطريقي إلى المدرسة، فقط أحتاج خمسة دقائق لكي أصل"، فقالت لها المديرة رنيم: "حسنا، بالإنتظار، ولكن خمسة دقائق فقط لا أكثر"، فردّت ليلى: "أكيد" .

وأثناء سيرها بالمركبة مع إبنها عمر وإذا بهم بقلب إزدحام هائل، ارتبكت ليلى ثم راحت تغلي وتفور فليس لديها الوقت الكافي أمام هذه الأزمة، فحرّكت المركبة مسرعة لتأخذ منعطفاً على اليمين لتتفادى هذا الإزدحام، وإستمرّت بالقيادة حتّى وصلت مفترق طرق عليه إشارة ضوئيّة وأمامها مركبة -جيب هنداي- والإشارة كانت حمراء.

توقّفت خلف هذا الجيب، وعندما أنارة إشارة المرور باللّون الأخضر لم يتحرّك هذا الجيب**!** فوضعت يدها على زمور مركبتها، وضغطت عليه ضغطة متواصلة حتى كاد أن ينفجر بين يديها، ولكن السّائق لم يتحرّك، وهي بعجلة من أمرها كي لا تُلغى فقرة إبنها -عمر- الصّباحيّة، فهذه أول مرة سيشارك فيها، فوضعت يدها مرة أخرى على الزمور، وضغطت عليه بشدّة حتّى تعبت يدها، ولكن لا حياة لمن تنادي.

الإشارة شارفت على اللّون الأحمر، فتحركت ليلى مسرعة من جانب الجيب، وأخذت تصرخ وتوبخ سائق الجيب، ثم تجاوزته وأكملت طريقها بسرعة، ولكن لم يسعفها الوقت، حيث تلقت ليلى اتصالاً من رنيم مديرة المدرسة تخبرها فيها أن المدرسة قد قامت بإلغاء فقرة إبنها عمر.

وضعت ليلى الهاتف جانباً، وراحت تنعق داخل مركبتها، ثم قالت لابنها عمر: "ماما، لا تحزن سنذهب إلى المنتجع بعد عودتك من المدرسة".

وقفت ليلى على الإشارة التي تليها، وإذا بسائق الجيب يتبعها من الخلف ويقف بمحاذاة مركبتها، ويؤشّر لها بأن تفتح له الشبّاك، فقامت ليلى بفتحه، فقال لها: "سيّدتي، أنا مررت بوقت عصيب جدّا، ولم أنتبه للإشارة، وأخذني التّفكير ولم أتنبّه أن الإشارة أصبحت حمراء، وأنا أعتذر لك...أنا آسف"، فقالت له ليلى وهي مُنتفخة منه: "غير مهتمة باعتذارك الآن يا سيّدي، فقد ألغيت فقرة ابني المدرسية بسببك"، فقال لها: "لقد إعتذرت لك**!**"، فردّت: "لا يهم"، فقال لها: "وأنا مررت بيوم عصيب، ولا يعلم بِلصبه أي شخص في العالم"، فردّت ليلى وهي غير مهتمّة: "شكرا لإعتذارك"، فردّ عليها: "وأنت... ألا تعتذرين لي؟"، فقالت ليلى: "ولماذا أعتذر لك؟**!**"، فقال لها: "على ذلك الزّمور الذي أطلقتيه بشدّة، لقد أفزعني وأربكني"، فقالت له ليلى: "طبعا لن أعتذر لك، فأنا لم أخطئ بحقّك يا يا... ما اسمك؟"، فقال لها: "اسمي رفيق"، فقالت ليلى: "وليكن.. يا رفيق، لن أعتذر

لك"، فردّ رفيق بغضب: "هكذا الأمور إذن، أنا إعتذرت لك، ووضحت موقفي، وأنت في المقابل لا تريدين أن تعتذري لي!!".

ثم نظر رفيق إليها وسألها: "ألست أنت ليلى"، فردّت باستغراب: "نعم"، فقال لها: "أليس -يامن- هو أخاك"، فردّت ليلى باندهاش: "صحيح"، فقال لها رفيق: "ألا تعلمين أنّ أخاك -يامن- قام بفصلي من العمل، ولم يقم حتّى بإعطائي مهله كي أرتّب أموري، ولم يمنحني وقتاً كي أجد عمل بديلا من أجل أن أطعم زوجتي وأولادي، ولم يكترث أنه سوف يتم طردي من المنزل إن لم أسدد الديون المتراكمة علي!".

فنكّست ليلى رأسها وقالت بصوت خافت: "أنا أعتذر يا رفيق، وأتمنى أن تقبل باعتذاري".

الملاكم الورقي

+١٨

في يوم من الايام استيقظت لأجد نفسي على الرصيف، ولي مع هذا الرصيف حكاية طويلة، لقد كان صديقي منذ نعومة أظافري حتى اشتعلت لحيتي شيباً، وها انا الآن أبلغ من العمر ٥٥ عاماً ولم أعرف سوى هذا الرصيف صديقاً لي.

كنت اراقب الناس جميعاً من على متنه، كنت أنظر الى ذلك الأب الذي يوصل أبنائهُ الى المدرسة ويودعهم، وينتظر في مركبته حتى يغيبوا عن ناظريه ثم ينطلق، كنت أرقب تلك الام التي تحتضن طفلها وتطبع قبلة على خده، كنت أشاهد مداعبات الحب لتلك العائلة، وإلى صاحب العمل وهو ذاهب الى عمله، وإلى الشّباب وهم يتسكّعون ويجلسون في الكافيه ويتناولون كوب القهوة، كنت اراقبهم وأعدّهم وأحفظ وجوههم جميعا، ولكن لا أحد منهم انتبه إلي، طيلة ال ٥٥ عاماً لم يلتفت إلي أحد سوى هذا الرصيف.

أنا لقيط، لا أعلم من هم أبواي ولا من أي عائلة أنحدر، ليس لي أصدقاء، ولا يوجد هناك من يهتم بي، لا أملك عملاً، ولا أستطيع أن أتقدم لوظيفة كوني لا أملك هوية أو أي أوراق ثبوتية أو أي وثائق رسمية تخبرني من أنا! وبالتالي لن أتمكن من جني المال لشراء أقل حاجاتي أو احتياجاتي، لا شيء سوى هذا الرصيف.

أنا لقيط مشرّد غير معترف بي -المجتمع لا يعترف بي- وكيف يعترف بي وأنا لا أعرف من أنا من الأساس؟! بل إنني حتى لا أعرف ما هو اسمي! لقد أطلق علي سكّان هذا الرصيف "ميدو" عندما كنت طفلاً رضيعاً في قلب اللّفّة، كنت أشعر أنني ككلب ضائع تائه في الطريق، يتخبط هنا وهناك، وبطنه في ظهره من شدّة الجوع، فعثر عليه أحدهم صدفة، وأشفق عليه، وتبنّاه وسمّاه.

على العموم... كنت اشارك الناس أفراحهم، أصعد الى أعلى البناية المتواجدة على زاوي الرصيف وأجلس على حفتها، واشاركهم في نظري، وعندما أنام أشاركهم الرقص في حلمي.

عندما أتضوّر من الجوع كنت أذهب الى حاوية نفايات على جنب هذا الرصيف، فأقف على حرفها وأشتم رائحتها النتنة، ثم أقفز بداخلها، وأفتش بين القمامة هنا وهناك لعلي أعثر على كسرة من الخبز أو بقايا طعام، كنت ألتقط منها فطوري وغدائي وعشائي إن وجدت، وأحيانا أمضي على وجبة طعام واحده طوال اليوم، وكانت من هذه الحاوية، ثم أعود الى رصيفي كي انام.

وفي يوم من الأيام واذا بمركبة فاخرة -جيب مرسيدس- يقوده شاب عشريني يبدوا عليه الثراء الفاحش، وكان برفقته ثلة من الأغنياء، وما لبثوا إلا أن قدموا نحو الرصيف الذي أتمدّد عليه، وإذا به ينادي ويجمع كل الشحّادين والسائلين والساكنين على هذا الرصيف من المشردين والبؤساء - وكنت أنا معهم- ويعرض مبلغ وقدره "٤٠ جنيه" لكل المتسولين والمتواجدين على هذا الرصيف

ولكن بشرط، أن يدور قتال بين شخصين مِنّا، ومن يفوز يحظى بال "٤٠ جنيه"، فوافقت على الفور، فليس هناك خيار آخر لكي أحصل على مال.

قلت لذلك الشاب الغني: "انا سأقاتل"، ووقف متسول آخر قِبلي وقال لي: "وأنا سأكون خصمك"، وبدأ النزال، فهزمته بكل بساطة، واخذت ال "٤٠ جنيه" وكانت أول ٤٠ جنيه أمتلكها في حياتي.

ذهبت الى فندق مخصص للطبقات الفقيرة، دفعت ١٠ جنيهات لكي أستأجرغرفة لليلة واحدة، وكان أول عمل قمت به عندما دخلت هذه الغرفة هو أنني أخذت حماماً دافئاً، وكنت سعيداً جدّاً وأنا أزيل عن كاهلي تلك الأوساخ، وأنظف شعري من تلك الحشرات، وكانت هذه هي أول مرة أستحم فيها أيضاً، ثم خطوت نحو السرير كجندي متعب يعود إلى وطنه بعد حرب طاحنة، وما أن وضعت جسدي عليه حتى دخلت في نوم عميق، ورحت أشخر كفرقة موسيقية تؤدي مقطوعتها على خشبة المدرّج.

عند الصباح كانت معدتي تصدر أصواتاً من شدّة الجوع، خرجت من الغرفة وسلمت مفاتيحها لنادلة الفندق، ثم توجهت الى إحدى المطاعم الشعبية لشراء وجبة طعام، كان ثمنها ١٠ جنيهات، اشتريتها وتناولتها وكدت أتناول أصابعي معها لشدّة لذتها.

تبقى لي من ال "٤٠ جنيه" ٢٠ منها، ذهبت الى فتاة ليل رخيصة تبتاع الهوى على رصيفنا بثمن بخس، فأعطيتها ١٠ جنيهات لكي أدخل معها في علاقة حميمة، وكانت أول مرة في حياتي أقترب فيها من امرأة وألمس جسدها، شعرت حينها أني مستلق فوق حرير.

تبقى من ال"٤٠ جنيه" ١٠ فقط، قلت في نفسي: "سأدخرها للحاجة"، عدت الى رصيفي بعد هذا اليوم الرائع، واتكأت عند زاويتي، وإذا بمتسول نحيل يرتدي ثياب ممزقة ومهترئة يتحدث مع نفسه -أعتقد أنه يبلغ الثمانين من العمر- رأيت بتجاعيد وجهه الهرم البؤس الشديد، كان يمد يده التي بان عظمها من لحمها للمارة سائلاً الحاجة، فشهقت من الحزن على حاله -إنني فقير.. وأعلم جيّدا ماذا يعني أن تكون مشرّداً وفقير- فتحت كفي ونظرة نظرة الوداع إلى ال ١٠ جنيهات المتبقية معي، ثم اتجهت نحوه وتصدّقت بها عليه.

استيقظت في صباح اليوم التالي على ضجيج، وإذا بذلك الشاب الغني يزور رصيفنا مرّة أخرى، وما لبث حتى اتجه نحوي، وعرض علي ٤٠ جنيهاً لكي أقاتل مرّة أخرى، فوافقت، وهزمت الرجل الذي تحداني.

وبدأ هذا الشاب يتردد كثيراً على رصيفنا، وفي كل مرة يعرض علي عرضه، كنت أقبل وأنسف كل من يقف أمامي، لقد هزمت معظم المتسولين الذين يسكنون هذا الرصيف، وكنت في كل مرّة أحظى بال ٤٠ جنيه، الا ان جاء هذا الشاب الغني في يوم من الأيام ومعه مجموعة من الأشخاص الملثمين، ثم وجه أصابعه نحوي ونظر إلي فبادلته النظرات، وإذا بهؤلاء الملثمين يتحركون نحوي، فأشحت ببصري القلق عنهم وهم يتقدمون نحوي حتى وقفوا قبلي.

فجاء ذلك الشاب الغني ومد كفه المقبوض نحوي، ثم قلبه وفتحه وإذا بداخل ١٠٠ جنيه، ثم قال لي: "ستكون من نصيبك إن قاتلت أي شخص مقابل أصدقائي الملثمين"، ترددت قليلا لكن المبلغ كبير، وهذه فرصة لا تعوض، فوافقت، لكن المشكلة كانت أنه لم يجرء احد من المتسولين الذين يفترشون الرصيف أن ينازلني، وفجأة وقف رجل كبير في السن، يبلغ بضع وسبعون من العمر لكي يتحداني، فلكزته بعيني وقلت له: "لا تفعل هذا أيها العجوز، أنت لا تقوى على ذلك، سأهزمك بضربة واحدة"، فأجابني: "لقد أضرمت النار لهيبها في جثتي، وأنا بحاجة الى ١٠٠ جنيه هذه لأسد مسغبتي، ثم إنني ليس لدي أي حل آخر، فأنا سأموت على كلتا الحالتين، إما من الجوع أو من قبضتك"، كان لكلماته وقع ثقيل على صدري ما جعلني أبكي وأجثوا على ركبتي وأقول له: "إضربني أيها العجوز... إضربني"، فجعل يضربني وهو يبكي ويلكم وجهي حتى سقطت أرضاً، وكان كل ما يجول في فكري حينها أن ينال هذا العجوز ال ١٠٠ جنيه، لكن الشاب وملثمينه لم يعجبهم ذلك، فانهمروا ضرباً في كل جزء في بدني لما صنعته مع هذا العجوز، حتى أغشي علي.

أفقت داخل المستشفى، ولا أعلم كيف وصلت له، وقد كنت وحيداً كالعادة، وكنت أتمنى أن أرى أحدا بجانبي، لكن لا يوجد سواي، نظرت في المرآة لوجهي المنفوخ كالبالون من تلك اللكمات، أنوح من هول ألمي ووحدتي، ولا إراديّاً ضغطت على زر المناداة، ولكني لم استدعِ الممرضة، وإنما بدأت أروي قصتي لكل من يسمع في غرفة الممرضين، ولكنه حظّي وأعرفه، فلم يكن هناك أي أحد للاسف، فجعلت أنتحب من البكاء، وللصدفة لمحت طفلاً صغيراً كان يسترق السمع من خلف بابي، ثم ما ان انتبهت له حتى هرب.

بعدما عوفيت خرجت من المستشفى الى رصيفي، ووقفت على بلاطه كعادتي، وجعلت انظر إلى الناس جميعاً مرة أخرى وأنا مألوم ومحزون، فقد كنت أطمح الى ان يكون لي صديق واحد لا أكثر، هذا كان كل ما أبغيه.

وانا أوزع عيناي نحو الناس، واذا بطفل صغير يمسك بيد أمّه ويحدق بي، كنت فرحاً أن هناك طفل رآني، عندما بادلته النظرات وإذا به يُفلت كفه من كف أمه ويركض نحوي وهو يبكي حتى وصل إلي، ثم قفز في حجري وحضنني بشدة وبكى، كانت ردّة فعله غريبة، فسألت نفسي: "يا ترى ما قصة هذا الطفل؟ ولماذا اندفع نحوي بهذه العاطفة الجياشة؟"، واذا به ينظر إلي ويقول: "ألم تعرفني؟"، فقلت له: "لا.. أنا آسف" فقال لي: "أنا ذلك الطفل الذي كان يسترق السمع من خلف باب غرفتك في المشفى، لقد سمعت قصتك بأكملها".

ففرحت كثيراً وحضنته وبكينا معاً، فلقد كان كل ما اريده في هذه الحياة ان ينظر الي شخص واحد فقط، كان كل ما أريده صديق واحد لا أكثر، لقد مضى من عمري ٥٥ عاماً انظر للناس، وها انا اخيراً أحظى بنظرة أحدهم، لمسة طفل صغير لكنه بالنسبة لي كان العالم الكبير، لقد كان صديقي وعائلتي و كل شيء.

جنة العنيد

١٨+

كان هناك رجل عنيد، اقترح التوجه جنوباً للجنة الموعودة، وكان الشروع بهذه الرحلة احدى قصص طفولته، ولكن لكي يبلغوا هذه الجنة عليهم أن يجتازوا إمتحاناً في المنتصف، وهو أن يتخطّوا جبلاً عظيماً، ولكن الجنة تستحق، فقد كان فيها أنهاراً عذبة، وماشية، وألوان من الفاكهة والخضروات، وكهوف دافئة.

سخر منه أهله وعشيرته، ولكنه كما قلت لكم -عنيد- ويريد أن يسعى إلى بقعة أفضل من التي يتربعون فيها، حيث كان الموت يفتك بهم من كل النواحي، فلا طعام ولا شراب، والمياه ملوثة والقحط يدب أقدامهُ في المكان.

رفض الجميع مقترح هذا الرجل العنيد، ولم يوافقه سوى عشرة أنفار بالإضافة إلى ابنته وشاب يتيم ورجل مجنون، وبالفعل، في الصباح مضى رحلته برفقتهم.

عند وصولهم للجبل، تعجبوا من علُوّهِ، حتى أن رقابهم تخشبت من النظر للأعلى، لقد كان عظيماً حقّاً كما جاء في القصص عنه.

بدأت الحرب مع هذا الجبل الشاهق، قاوموه بشتى الوسائل والطرق، سلب الجبل منهم الكثير، حيث لقي العشرة أنفار مصرعهم، ولم يتبقى سوى العنيد وابنته واليتيم والمجنون، وفي طريقهم نحو القمة كانت عين الموت ترقبهم، ولكن هناك جنة في الخلف بانتظارهم.

ولحظة أن فتح الموت فمه لبلعهم هدأ الجبل، ووصلوا قمّته، لقد كان المشهد جميل جداً، لقد ظهرت الجنة الموعودة.

لقد أنقذ الرجل العنيد من بقي معهُ، وقادهم إلى الفرودس الذي سينبت ويولد فيه جيل جديد، أخيراً، وجدوا السلام، وعثروا على فردوسهم الخاص.

عندما هبطوا من الجبل وبلغوا الجنة كانت الصدمة...

إنها جنة ملعونة، كانت أرضاً قاحالة وبوراً تصفعها الرياح من كل مكان، ويقتلها البرد، لقد كانت أرض ظلام، لا يوجد فيها نور، وإن أخطر ما في هذه الجنة السوداء والمظلمة هي أنه عند إشعال النور ستكتشف حينها من يعيش في قلب هذا الظلام، إنهم لا يعلمون بعدُ هل يسكنها احد أم لا؟ وماذا يخبئ لهم المجهول فيها.

لقد كانت قصة هذا الجنة كذبة كبيرة !!

بدأت رحلة الكفاح ومقاومة الجوع في هذه الجنة الملعونة، حتى وصل الأمر بالرجل المجنون أن يفكر بأكل ابنة الرجل العنيد من شدة الجوع.

لاحظ ذلك الشاب اليتيم ذلك، وبدأ بمراقبة المجنون حتى تأكد فعلاً أنه يُخطط لذبح ابنة العنيد وأكلها، ولكنه كان جداراً لها في حضورها، وحصناً لها في غيابها، لأنه ببساطة يحبها.

إن اليتيم كان يحب ابنة العنيد، ففكر بقتل المجنون والتخلص منه لكي لا يشكل خطراً على حياتها، ولكنه تراجع مؤخراً عن فعل ذلك، فلا يوجد على متن هذه الجنة سوى أربعة أشخاص، وبتخلصه من واحد سيتبقى ثلاثة، ولا يعلمون بعد ماذا ينتظرهم في هذه الجنة؟ لذلك من الأفضل الإبقاء على حياته، لعله ينفعهم اذا اشتد الكرب وانكشف المجهول.

كانت الجنة في الصباح هادئة وساكنة، فكانوا يخرجون جميعاً للبحث عن الطعام، وفي أحد الصباحات خرج الرجل العنيد والمجنون للبحث عن الطعام، فوجدوا خلف إحدى التلال لحم ممزق، فاعتقدوا أنه سقط من أعلى التلال إلى القاع وتهشم، ولكن الرجل العنيد كان يعتقد أن الأمر مختلف في قناعة نفسه، فأخبر المجنون أن لا يخبر ابنته واليتيم بذلك.

في الليل كانوا يشعلون النار ويلتفون حولها كالمقروصين، ويستمعون لأصواتاً غريبة ومخيفة تصدر من خلف هذه الأشجار العالية، ولكن لم تكن لتسعفهم المحاولات لمعرفة ما هو مصدر هذه الأصوات، هل هم حيوانات؟ ام كائنات أخرى لا يعلمون عنها شيء؟

لم تكن أصواتهم كاصوات الكلاب أو الذئاب -نحن نعرفها- ولكنها كانت أصواتاً غريبة لم نسمع مثلها من قبل! كنا نرتجف خوفا ورعباً عند سماعها.

كنا نمكث كل يوم في بقعة على متن هذه الجنة التي لا تنبعج ولا تلتوي، في الصباح نستيقظ للبحث عن الطعام، وفي الليل نشعل النار حيث تقف اقدامنا؛ ونلتف حول النار ونحن ننتفض من تلك الأصوات التي لا نعلم من هم أصحابها، وعند استيقاظناً نرتحل باحثين عن الطعام، وهكذا.

في أحد الأيام استيقظ العنيد، ومدّ بصره نحو الجميع لتفقّدهم، فلاحظ أثناء ذلك تغيرات على جسد ابنته، لقد كان بطنها منفوخ نوعاً ما، ولم يراوده الشك أبداً أنها حامل، فلقد كانت دائما تلهوا برفقة هذا الشاب اليتيم، غضب لوهلة، ولكن سرعان ما ارتسمت الابتسامة على وجهه لكونه سيصبح جَدّاَ.

عند حلول الليل شدّت هذه الغابة على أسنانها، وازدادت وتيرة هذا الصوت المرعب، وكنّا نرى حركة خفيفة من خلف الأشجار، بقينا مستيقظين نعطي ظهورنا للنار ووجوهنا نحو الأشجار، ولم ترى أعيننا النوم تلك الليلة.

وفجأة قلّت الحركة وبدأ يتلاشى هذا الصوت شيئاً فشيئاً حتى اختفى، فالتففنا حول النار مرة أخرى واقتربنا من بعضنا.

في هذه الأثناء صاحت ابنة الرجل العنيد، حيث جائها المخاض وهي على وشك الولادة، وفي الوقت ذاته لمحنى اختفاء المجنون، ولم يكن في هذه الأثناء سوى الرجل العنيد وابنته التي بين يديه وعلى وشك أن تضع حفيده، والشاب اليتيم "حبيبها".

تمت الولادة على خير، وانجبت توئماً.

في الصباح كان يفكر الرجل العنيد في الرجل المجنون أين تبخّر؟ هل اختطف من قبل هؤلاء الكائنات دون أن نشعر!؟ ثم قال: "ليس أمامنا من سبيل إلا أن يطاردنا ذلك الحيوان ليقتلنا ويأكلنا، أو نتخذ نحن الخطوة مسبقاً بمطاردته وقتله".

كان الجوع قد أوشك أن يفتك بهم جميعا، خصوصاً أحفاده وابنته، فهي بحاجة ماسة إلى الطعام كي يخرج من احشائها الحليب لارضاع أطفالها، وفي إبان سيرهم في الطريق كانت المفاجئة، حيث وجدوا الرجل المجنون ميتاً وملقاً في وسط الأرض.

اخترقت سهام الرعب صدورهم جميعاً، خاصة الشاب اليتيم الذي كان يبحث عن ملاذ لحبيبته وأطفاله كي يحميهم من فكّ هذا الحيوان، فاقترح الهرب والاختباء في كهف، ولكنه تذكر يوما أنه قال في نفسه -لا بد أن ينفعنا هذا المجنون يوما- وها قد جاء هذا اليوم، فقام بتقطيعه إلى أجزاء، ووضع بعض منه على النار لطهيه حتى استوى، واطعم حبيبته وطفليه، ومن ثم أكل هو وحماه، وادخروا الجزء الأكبر المتبقي للأيام القادمة، ومضى سبيله نحو الكهف.

أمّا عن الرجل العنيد، فقد كان يفكر في خطة لقتل هذا الحيوان، فقام بعد سجال طويل مع ابنته بوضع أحد توئمها طُعماً على صخرة لكي يستدرج هذا الحيوان ومن ثم يقتله، وبالفعل، وضع الرضيع على صخرة، واذا بهذا الوحش يظهر، كان مديد القامة وضخم الجثة، ولكنه كان يمشي على اثنين تماماً كما البشر، لم تكن ملامحه واضحة، لكون الضباب يعم أرجاء المكان.

سرق هذا الوحش على غفلة الطفل الرضيع وركض به بعيداً، فتبعه الرجل العنيد لوحده، وترك ابنته وشق التوئم الصغير مع الشاب اليتيم ليمضي بهم نحو الكهف، فأوى بهم إلى الكهف القابع وسط إحدى التلال.

بينما تتبع الرجل العنيد آثار هذا الوحش الذي اختطف حفيده، واذا به يدخل في نفق، فتسلل خلفه خلسة، يخطوا بحذر كبير في زقاق هذا النفق حتى وجد الوحش، بدت الرؤيا واضحة كوضوح الشمس، حيث كان يلبس فراء ذئب رمادي، ويضع الطفل على مائدة خشبية، ثم وضع آلة حادة كالسكين على رقبته من أجل نحره.

ومن دون وعي هجم الرجل العنيد على هذا الوحش العملاق لكي ينقذ حفيده، فدفعه، فسقط أرضاً، ثم امتطاهُ ولفّه نحوه، وكانت المفاجئة أنه كان بشراً من لحم ودم، مثلنا تماماً.

صعق العنيد وتمسمرت يده، واذا بهذا الإنسان يطعن الرجل العنيد في بطنه طعنات عديدة، ومن ثم فسخ وجهه ليسقطه ميتاً على الفور.

بعد وقت قام هذا الإنسي بذبح هذا العنيد وأكل جزء من لحمه، وادّخر ما تبقى منه للأيام والأشهرالقادمة.

أما عن الرضيع الصغير فقد بدّل هذا الانسي وجهة تفكيره نحوه عندما حصل على طعامه من جدّه، فقام باتخاذه ولداً له، فربّاهُ وعلّمهُ حتى اشتدّ بأسهُ وأصبح في العشرين من العمر.

كان عِلم هذا الصبي أن هذا الانسي هو والده، فكان مطيعاً له في كل شيء.

وفي يوم من الأيام بعث هذا الانسي -الذي أصبح عجوزاً- ولده للبحث عن الطعام، فخرج حتى وصل إلى كهف مسكون، كان فيه رجل على مشارف الخمسين من العمر، وبجانبه امرأة أربعينية وشاب في العشرينات من عمره، فقام بمراقبتهم ليلا حتى دخلوا في نومهم، فانقض عليهم وقتلهم جميعاً وعاد بأجسادهم إلى والده العجوز.

فرح هذا العجوز بهذه الغنيمة وبما صنعهُ ولدهُ، فأمطرهُ بالدعوات وقبّل جبينهُ، وطلب منه أولا الإحتفاظ بجسد الرجل والإمرأة في زاوية النفق الذي يقطنون به، وثانياً أن يقوم بتقطيع الشاب إلى قطع صغيرة حتى يأكلوا منها ويسدوا جوعهم.

قام بذلك... وأطعم والده العجوز بعضاً من لحم البطن، ثم أكل هو، وادخروا الباقي.

الشيطانة المؤمنة

+١٨

كان هناك رجل يجلس في شرفة غرفته والتي تقع على ارتفاع ٢٣ طابقاً عن سطح الأرض في إحدى الأبراج الفارهة المطلة على البحر، كانت عقارب الساعة تؤشر نحو الخامسة صباحاً، احتسى هذا الرجل فنجان قهوته ودخّن سيجارته، ثم ألقى بنفسه من على الشرفة.. انتحر.

في الوقت ذاته كانت تقبع شابة غريبة الأطوار -بالثلاثينيات من العمر- خلف القضبان في إحدى السجون، حُكم عليها بالإعدام شنقاً لقتلها خمسة شباب، حيث استدرجتهم جميعاً لعلاقة عاطفية ثم قضت عليهم.

قبل إصدار حكم الإعدام بحقها، تبيّن للقاضي وللجنة أنها تعاني من مرض نفسي، لذلك حولوا ملفّها للدائرة النفسية في السجن للبت بأمرها قبل تنفيذ الحكم.

تم حجرها في قسم هناك لحين تنفيذ الحكم بها، وخلال هذه الأيام توال الأطباء النفسيين والرّقاة من رجال الدين على مراجعة حالتها وقرائة أفكارها ومراقبة تصرفاتها والذين أجمعوا جميعاً على أن نوع المرض النفسي الذي تعالي منه هو الفِصام، حيث كانت تعاني من تبدّد الشخصية، ففي يوم تكون هي المُتحدث، وفي اليوم الآخر شخص غيرها.

صُنّفت حالتها من أصعب وأشد الحالات، حيث أن قسم مِن مَن تابع وضعها الصِّحّي انسحب، وقسم فقد عقله، وقسم انتحر -كالرجل الأول الذي تحدثنا عنه في بداية قصتنا- لقد كان طبيباً نفسيّاً أشرف على وضعها العقلي، ولكنه لم يحتمل الضياع الذي كانت تعاني منه هذه الفتاة فانتحر، لذلك تم احتجازها لوحدها في هذه الغرفة.

هذا الطبيب النفسي الذي ألقى بنفسه من على شرفة غرفته، إنتحر لأنه الطبيب النفسي الأكثر شهرة والأوسع خبرة في المنطقة، ومع ذلك فشل فشلاً ذريعاً، ولم يكن بمقدوره إقناع هذه الفتاة على أنها مريضة نفسيّاً حتى يوقف حكم بالإعدام بشأنها، فلقد كان على قناعة تامّة أن هذه الفتاة مريضة بالفصام، ولكنها كانت على قناعة تامّة أنها طبيعيّة وليست مفقوءة العقل، بل على العكس هي من أصرّت على تنفيذ حكم الإعدام بها لقناعتها الأكيدة على أن عقلها بخير وخالي من أي شطحات جنونية أو نفسية، لهذا الدّاعِ جُنّ الطبيب وإنتحر.

إنتشرت قصة هذه الفتاة في كل نواحي أوروبا، وتوال حضور الإطباء لمعاينتها ومحاولة معالجتها أو حتى الإقتراب من فهمها، ولكن للأسف لُسعت معظم عقول هؤلاء الأطباء، بل وتحول شق كبير منهم إلى مرضى نفسيّين.

ذاعت حكايتها بصورة أوسع حتى قفزت عن حدود أوروبا، إلى أن سمع بقصتها أفضل طبيب نفسي في الولايات المتحدة الأمريكيّة، ليتحدّى نفسه ويتبرع هو الآخر من أجل لقاء هذا المريضة ومعالجتها بلا مُقابل وعلى نفقته الخاصة.

وبالفعل، طار الطبيب، ووصل وجهته، واجتمع بإدارة السجن، وتم إبرام إتفاق بينه وبين إدارة السجن، نصّهُ يقول: "أن إدارة السجن ستستضيف الطبيب الأمريكي لأسابيع مجاناً في احدى الفنادق -مبيت وطعام وشراب وكل ما يحتاجه الطبيب- في المقابل سيكون على الطبيب عقد الجلسات مع هذه الفتاة على حسابه الخاص"، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، أو أن يتصوره أي عقل انسان!!

بعد أن استراح الطبيب في جناحه في الفندق، استحم وتناول طعامه وشاهد فيلم دراما ثم ذهب للنوم، وفي اليوم التالي ذهب الطبيب إلى السجن، وتوجه إلى الغرفة المعزولة التي تجلس بها هذه الفتاة لوحدها، وجرى بينهم هذا الحوار العجيب:

الطبيب: "أنا اسمي فرانك".

الفتاة: "أهلا بالطبيب فرانك".

الطبيب: "دعينا نناقش جرائمك الخمسة التي إرتكبتها".

الفتاة: "في الواقع جرائمي لها وجود، وهي قائمة قبل أن تأتي إلى هذه الدنيا أيها الطبيب".

الطبيب مُستهزئاً: "ألا تخافي من الموت لإصرارك على قيامك بهذه الجرائم؟!".

الفتاة بكل ثقة وهدوء: "الموت لا يخيفني أيها الطبيب".

الطبيب متسائلاً: "لماذا؟".

الفتاة: "لأني لا أموت".

الطبيب مُتعجّباً: "وكيف لا تموتين!؟ وهل يوجد إنسان لا يموت!".

الفتاة: "لإني لست من بني جنسك".

الطبيب مذهول: "وماذا تكونين؟!".

الفتاة: "أنا شيطان".

الطبيب مُستهزئاً: "شيطان! وهل لديك إسم أيها الشيطان؟".

الفتاة: "نعم لدي، ولكن لكي أخبرك به عليك في البداية الإعتراف بي وتصديقي".

الطبيب: "ولمَ أعترف بك وأصدّق بوجودك؟".

الفتاة: "كما اعترفت بإسمك -الطبيب فرانك- وصدّقتك، عليك في المقابل أن تعترف بإسمي وأن تصدقني... المعادلة سهلة وبسيطة".

الطبيب مُندهشاً: "حسناً، هل أنتِ فعلا شيطان؟! وما اسمك؟".

الفتاة: "نعم، أنا شيطان، واسمي -لاقيس-".

الطبيب: "حسناً يا -لاقيس- ولكن لدي سؤال لك".

لاقيس: "وما هو؟".

الطبيب: "كيف أصدّق أنّكِ شيطان وأنت أمامي الآن على هيئة إنسان من لحم ودم؟!".

لاقيس: "بكل بساطة.. لأني أسكن جسد هذه الفتاة المسكينة -إيزابيلا-".

الطبيب: "أنا لا أؤمن بك يا -لاقيس- لأني لا أراك، فأنا أرى الآن أمامي -إيزابيلا- فقط؟!".

لاقيس: "وكيف ستراني وأنا طبيعتي تختلف عن طبيعتك!".

ذُهل الطبيب وظلّ واجماً لدقائق، ثم قال: "لنتحدث عن الضحايا الخمسة التي قتلتها يا إيزابيلا؟".

لاقيس وهي جاحظة عينيها: "ليست إيزابيلا التي جزت أعناقهم قُلت لك، وإنما -لاقيس- أنا من صنعت ذلك".

الطبيب: "حسناً، لماذا لا تكون -إيزابيلا- هي من فعلت هذه الجرائم؟".

لاقيس: "لم تفعل ذلك بإرادتها، أنا من أجبرتها على القيام بذلك".

الطبيب بتهكّم وسخرية: "وهل أشهرت السلاح نحو إيزابيلا! أم أنك يا لاقيس وضعت السكين حول عنقها!".

لاقيس: "هل تؤمن أيها الطبيب بوسوسة الشيطان؟ هل تُصدّق بفكرة أن هناك كائن خبيث لا يُرى بالعين الإنسانيّة يتحدث إلى عقله ويلعب بأفكاره؟!".

الطبيب: "طبعاً لا".

لاقيس: "ألم تقرأ ذلك في الكتب السماوية –القرآن والإنجيل والتوراة- ألم تقرأ ذلك في كتاب المسلمين في سورة الناس -الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس-؟".

الطبيب: "بلا.. قرأت ذلك".

لاقيس: "إذن.. لماذا لا تؤمن بوجود الشياطين؟ لماذا لا تؤمن بوجودي؟".

الطبيب: "لأني لاديني.. أنا مُلحد".

لاقيس: "إذن.. هذا يعني أنك لن تؤمن بأي شيء سأقوله لك!".

الطبيب: "ليس المهم أن أؤمن أنا، المهم ما تؤمنين به أنت!".

لاقيس: "أيها الطبيب، إن كانت المسألة بالنسبة لك هي إنكار العلاقة بالرب وبالأديان وبالشياطين، فأحب أن أخبرك أن الشيطان تخلى من قبلك عن الإيمان بالله منذ وقت بعيد، إننا نتسلح بالمعرفة والعلم تماماً كالإنس.. تماماً مثلك".

الطبيب مُتلعثماً: "متى تلبست يا لاقيس جسد إيزابيلا؟".

لاقيس: "العملية معقدة نوعاً ما، لكن سأشرحها بإختصار، في البداية نقدم سلسلة من الإغرائات الغير أخلاقية، وتكون صغائر كحبّة النور، ونفعل ذلك حتى يتعود الإنسان عليها، ثم ننتقل إلى المرحلة الأخرى وهي الكبائر، ونبقيه عليها حتى يُدمنها، ثم تكون النهاية.. وعليك أن تعلم أيها الطبيب أن هذه الاغرائات نقدمها للعقل المضيف الذي سنقوم بالسيطرة عليه".

سكتت لاقيس قليلا، ثم ابتسمت فجأة وقالت للطبيب: "أتعلم أن الإنسان في القرن ال -٢١- وصل به الحال إلى أن يعبد نفسه ويدّعي الألوهيّة! هل تعلم أيها الطبيب أن الإنسان عبد الشيطان نفسه الذي تكفر به أنت!".

ثم صفعت لاقيس الطبيب -فرانك- بهذه الكلمات وقالت له: "أتعلم أن الإنسان تفوق على الشيطان! بل إنه تفوق على سيّدنا إبليس بذاته!".

فردّ الطبيب بحذر وتلبُّك: "وكيف ذلك؟".

لاقيس: "إن الإنسان مارس الشذوذ الجنسي وزيّنهُ بعبارة -المثلية- ودعا إليه، وسن قانوناً له، وأزال حقل -الجنس- من الهوية وجواز السفر، وهذا الأمر لنا علاقة به نحن منذ عهد النبي -لوط- لكن ما وصل إليه الإنسان من سبيل في الكفر والإجرام تفوق به علينا نحن معشر الشياطين، وهي مسألة -التحوّل الجنسي- لقد تعجّبنا من دهاء الإنسان وكيف خطرت على باله هذه الفكرة من الأساس، والتي لم تخطر على بالنا ولا حتى على بال مُعلّمِنا وسيّدنا -إبليس-!!".

الطبيب غاضباً: "أعتقد أنكِ ستُعدمين يا إيزابيلا أو يا لاقيس، أيّن كان اسمك.. فُكي عن رقبتكِ حبل المَشنقة بعد غد إن استطعتِ".

لاقيس: "أخبرتك أني لن أموت، وإنما إيزابيلا هي التي ستموت، فلقد فَرَغت وإنتهيت منها، وحان الآن وقت رحيلها إلى الجحيم".

الطبيب مُرتبكاً: "أنا لا أخاف منك أيها الشيطانة، ولا يهمني أمرك، ولا أعترف بوجودك من الأساس، فأنا كافر بك وبكل ما هو وراء هذه الطبيعة".

لاقيس بسخرية: "هل تعتقد أن إلحادك سوف يحميك من وسوستي؟".

تقهقهت لاقيس، ثم اقتربت من الطبيب -فرانك- وأمسكت بطرف قميصه من الأعلى وقرّبته منها، ثم همست بأذنه تقول: "كم أنت أحمق أيها الطبيب! أنتم أيها الملاحدة حمقى لأنكم لا تؤمنون بالشياطين ولا بالملائكة ولا بالجنة ولا بالنار ولا بالخالق، مع أن النار مليئة بملايين الحمقى أمثالكم".

الطبيب مُنفعلا: "هل تعلمِ أن رقبتكِ بين يدي! فإما أن تتعاونِ معي وتُقرّي بأنك معتوهة وفي المقابل سأُنقذكِ من حبل المشنقة، وإما سأرفع توصيتي للّجنة من أجل تنفيذ حكم الإعدام والإسراع به، ولتعلمِ أيتها الفتاة المخبولة أن مصيرك مرهون على توقيعي وإمضائي على هذه الورقة بعد الإنتهاء من حواري معك".

لاقيس: "ليس لديك أي سلطة علي إلا في حالة واحدة".

الطبيب مُغتاظاً: "وما هي؟".

لاقيس: "إلا اذا منحناك هذه السلطة من العالم السفلي".

وما أن انتهت لاقيس من الحديث حتى انفجر زجاج نافذة الغرفة، فقفز الطبيب كالملدوغ من على كرسيه، ثم نضّد بعضه سريعاً، فقالت لاقيس له: "ربما هذه صدفة لأنك لا تؤمن بي".

خرج الطبيب من الغرفة يهذي، وأخرج هاتفه من جيبه ثم اتصل بقس المدينة وأخبره بأمر الفتاة وطلب منه الحضور فوراً، فلبّى القس النداء، وحضر إلى الزنزانة لكي يعاين حالتها.

بدأ بتلاوة آيات من الإنجيل، فثارت لاقيس وقالت له: "لماذا أتيت؟! لا تعذبني قبل أواني".

القس: "لم آت لأعذبك، وإنما لأساعدك".

لاقيس: "ألا تؤمن أيها القس بسيطرة الشيطان على الإنسان؟".

القس: "كلها أوهام، ولا يوجد استحواذ روحي، وقد أخذت المسألة مُنحناً بعيداً بسبب الأفلام، كفيلم -آنابيل، والشعوذة، وماما- وبعض المسلسلات وغيرها".

لاقيس: "لا أتحدث عن استحواذ روحي، وإنما عن السيطرة على عقل الإنسان والتلاعب بأفكاره بحيث يتحول من شخص مُسالم إلى قاتل مُجرم".

توقف القس عن الحديث مع لاقيس، وراح يمطرها بالآيات ويصفعها بها، فبرزت عينيها وشحب وجهها، ثم صرخت في وجهه وقالت له: "انتهت جلستي معك أيها القس، وموعد عذابي ليس على يدك وإنما على يد ربّك".

في هذه اللحظة خرج القس مرعوباً وكأنه يهرب من وحش فاغراً فاه، ثم اصطدم بالطبيب، فقال له الطبيب: "يبدوا أن الأمور لم تسر على ما يرام! ما الذي حصل؟ وهل هناك أمل؟".

فأجابه القس: "للأسف.. ما من جدوى لفعل أي شيء مع هذه الملعونة".

دخل الطبيب بخطوات حذرة للغرفة، ثم نظر نحو لاقيس وقال لها: "إنك فتاة مجنونة وغير عقلانيّة".

فأجابته لاقيس: "أيها الطبيب.. إنني أكثر شخص عقلاني قد عرفتهُ وجلست معهُ في تاريخ حياتك".

الطبيب: "إعطني أي علامة تجعلني أصدق بوجودك أيها الشيطانة؟".

لاقيس: "دعني أدخل إلى عقلك وسترى".

الطبيب: "لن يحدث هذا أبداً".

لاقيس: "إذا انت خائف مني، وتخشى أن أختبر صحة قناعاتك".

الطبيب: "كلّا، هذا غير صحيح".

لاقيس: "ألست ملحداً ولا تؤمن بي.. إذن دعني أدخل إلى عقلك إن كنت لا تخشاني".

الطبيب بتردّد: "موافق، ولكن بشرط.

لاقيس: "وما هو".

الطبيب: "بعد أن تنتهي من ألاعيبك أريد أن أتحدث إلى إيزابيلا".

لاقيس: "موافق".

فطلبت لاقيس من الطبيب أن يضع يديه على الطاولة، وأن يبسط كفيه، وأن يُبقي عينيه مفتوحتين لكي تقفز داخل عقله، ثم اقتربت من وجهه، ووجّهت عينيها كالسهام نجو عينيه، وظلّت تشخص بهما، فقال لها الطبيب -فرانك- وهو يضحك: "لم أشعر بشيء، ولم يحدث شيء، وجسمي وعقلي مُلكي".

فردت لاقيس وهي تبتسم: "هذا ما تظنه أنت".

الطبيب: "هل انتهيت؟"

لاقيس: "نعم".

ثم قال الطبيب لها: "الآن جاء دوري".

لاقيس: "تفضّل".

الطبيب: "لاقيس، أريد أن أتحدث إلى إيزابيلا التي تقودين عقلها وتتكلمين بلسانها".

ففتحت لاقيس أعينها حتى كادت تخرج من محجرها، ثم رفعت رأسها إلى الأعلى حتى ارتطم بِحِفة مقعدها، وقالت للطبيب: "إيزابيلا معك، إيزابيلا تتحدث الآن".

الطبيب: "يا إيزابيلا، هل تعلمي أن الطبيب -كولين- الذي ألقى نفسه من على شرفة غرفته وانتحر لم يكن يصدق انك ملبوسة؟"

إيزابيلا: "من الصعب جداً ان يصدق الملحدون والأطباء هذا الأمر، فهم يؤمنون بالعلم التجريبي والعملي، ومسألة -الشيطان- لا يمكن إثباتها هنا".

الطبيب: "من هو الشيطان يا إيزابيلا؟".

إيزابيلا وهي تذرف الدموع: "إنه كائن سيء يفعل أموراً سيئة، وأعاقب أنا بدلاً منه سواء بالضرب أو بالحبس".

الطبيب: "إيزابيلا.. أنت قتلت خمسة أشخاص".

إيزابيلا: "لا.. لست أنا من أزهق أرواحهم، وإنما لاقيس من دفعتني إلى ذلك".

واثناء حوار الطبيب مع إيزابيلا إذ بصوتها يتغير فجأة من نغمة حنونة إلى خشنة، ثم قلبت رأسها وصارت تضرب به في سطح الطاولة، وإذا بلاقيس تعود وتقول: "أيها الطبيب، لقد قتَلتَ والدك قبل عشرة سنوات لترثه".

استشاط الطبيب غضباً عند سماع ذلك وقال: "أنا لم اقتل أبي! أنا لم اقتل أبي!".

(الطبيب إلى هذه اللّحظة كان يعتقد أن إيزابيلا مصابة بمرض نفسي يسمى "إضطراب الهوية" والإنفصال المعروف بتعدد الشخصيات، ولكن عندما أخبرته لاقيس على لسان إيزابيلا أنه قتل والده قبل عشرة سنوات ليرثه حينها نخر الشكّ رأسه، لأنه بالفعل فعل ذلك، والمشكلة أنه لا يوجد أحد في كل الكوكب يعلم بحادثة القتل هذه سوى هو فقط، فكيف عرفت هذه المجنونة بذلك؟!).

قطعت لاقيس حبل أفكار الطبيب -فرانك- وقالت له: "نحن نعلم كل شيء عن تبدد الشخصية وإضطراب الهوية أيها الطبيب".

هنا أسدل الشك رداءهُ على واجهة عقل هذا الطبيب الملحد، بأنه قد يكون للشيطان وجود في هذا العالم ولكننا لا نراه، وانما نرى أثره عبر الانسان، ولكن سرعان ما لفّ الإلحاد رداء الشك في عقل الطبيب -فرانك- وألقاه في هاوية المخرجات، وأخذ الطبيب يطمئن نفسهُ بنفسه، ويقنعها أن الإلحاد هو الحق، وأن الشيطان هو وهم اخترعه الانسان.

ثم نطق الطبيب بهذه الكلمات: "لاقيس.. أيتها الشيطانة، لقد فشلت في الاستحواذ علي، وهذا يعني أنك سراب... خيال لا أكثر".

لاقيس: "الصبر أيها الطبيب... الصبر".

بعد ذلك طلبت لاقيس من هذا الطبيب الملحد طلبا غريباً، فقالت له: "أريد أن تكتب عني مقالاً على الشبكة العنكبوتية".

فرد الطبيب: "وكيف أكتب مقالاً عنك وأنا لا أؤمن بك أصلاً؟ بيّني لي دليلاً عقليّاً واحداً على الأقل كي أصدّق بك وبوجودك؟".

لاقيس: "سأقص عليك أهم قصة ستسمعها في حياتك أيها الطبيب المُلحد".

الطبيب: "تفضلي".

لاقيس: "في بداية الخلق كنا مخلوقات ذو إرادة قوية ونقية، حتى أدركنا أن هناك إرادة قوية أخرى تضاهي شوكتنا، وهذه الإرادة جعلتنا نرى أنفسنا صغاراً".

الطبيب: "ماذا تقصدين بالإرادة الأخرى، هل تقصدين إرادة الإنسان؟".

لاقيس: "بالطبع لا أيها الأحمق، أقصد إرادة الله".

الطبيب: "الله!!!!".

لاقيس: "نعم، إنه عدوي، الله هو عدوّي اللّدود".

الطبيب: "ولماذا تقولين ذلك؟".

لاقيس: "لأن هذا الإله منحنا إرادة جبّارة ومنعنا من إستخدامها، وهذا ظلم للشيطان من قبل هذا الإله، وليس هذا فحسب، بل إنه أمرنا بعبادته والصلاة له، لذلك تمردنا عليه ومشينا خلف سيّدنا فوعدنا بالنار مَنزلاً لنا يوم الدين".

بُهت الطبيب، وتفوه أثناء سرد لاقيس للقصة بهذه الكلمة: "عجيييييييييب!!!"، فقالت له لاقيس: "لم أنتهي بعد"، وأردفت تقول: "في المقابل خلق الله الإنسان وأعطاه ملكة الإرادة والحرية، وخلق الجنة والنار، لكي يدخلكم الجنة، ولكننا أردنا أن نغويكم كي ندخل النار معاً وجنباً لجنب، ولهذا قمنا بغمس الإنسان في الشهوات والمعاصي، وأغويناه بالعلم لكي يظن نفسه أنه إله الطبيعة، ورب هذا الكوكب، وينسى ويغفل أن هناك إله واحد أحد فوقها قام بخلقه وبثه في هذا العالم، ومنذ أن سكنتم الأرض بدأت مهمتنا نحن الشياطين في تدمير النوع الإنساني".

الطبيب مذهول مِمَّا يسمع، ولا يكاد أن يُصدّق، فسألها: "ولمَ كل هذا الحقد علينا وعلى الإنسان من قبلكم؟!".

لاقيس: "سبب حقد الشيطان على الإنسان هو أن الله خلق الإنسان على صورته، ونحن نعمل ونشتغل ليلاً ونهاراً لنجعل الإنسان على صورتنا نحن... لنجعل الانسان على صورة الشيطان".

الطبيب مبهور: "هذه هي خطتكم إذن... أن تؤذوا الإنسان!!".

لاقيس: "كلّا أيها الأحمق، هذه الخطة الفرعية التي تنقلنا للخطة الرئيسية، وهي أن نؤذي -الله- نفسه عبر تدمير خليفته وهو أنتم -الإنسان- إن الإنسان ليس سوى وسيلة للوصول إلى هدفنا الأساسي والجوهري وهو الرب -الله- العظيم بنفسه".

كاد الطبيب أن يفقد عقله بعد سماع كل هذا من قِبل لاقيس، فقال لها: "سأكتب أنك مريضة نفسيّاً وعقليّاً، وأنك مجنونة ١٠٠% ولا سبيل لشفائك".

لاقيس: "أنا لست مجنونة، وأنت تعلم ذلك جيّداً، ولكنك تريد أن تكتب عني ذلك لأنك لا تعترف بوجودي -لا تريد أن تعترف بوجود الشيطان- ولكنك ستعترف بذلك قريباً، بل وستؤمن بي".

أكملت لاقيس تقول: "لماذا لم تخبر زوجتك أنك ستنفصل عنها من أجل السكرتيرة التي تحبها؟".

وهنا فقد الطبيب توازنهُ، فكيف علمت هذه الشيطانة بأمر مستور لا يعلمه أي بشر على وجه الأرض؟! كيف عرفت بذلك؟!".

أجاب الطبيب مُتذاكياً: "هذه حياتي، وأنا افعل ما يحلوا لي".

فردّت لاقيس: "كم أنت غبي... غبي... ألم تفقه الأمر أيها الأخرق، إنه الشيطان من زيّن لك هذا، إنه أنا من فعل بك هذا، وأغواك لكي تقع في حب هذه السكرتيرة وتتخلى عن زوجتك؛ أيها الأحمق، لست أنت من فعل هذا، إنه نحن الشياطين من نفعل ذلك باسم الإنسان، لكي نجرّكم معنا إلى جهنم، حتى عندما فَعلت فِعلتك وقَتَلت الجنين في بطن زوجتك، لم تكن أنت الفاعل لوحدك، بل كنت معك يا غبي!! يا غبي!! ألم تفقه الدرس بعدُ، نحن نفعل الحرام معاً".

هنا شك الطبيب في إلحاده كليّاً، ودأب كالمجنون يسأل لاقيس: "كيف عرفت بهذه الحادثة؟ من أخبرك بأمر الجنين؟".

فأجابته لاقيس: "ألم أقل لك أني شيطانة وأنت لم تصدق".

انهار الطبيب، وجثم على ركبتيه، وهنا وقفت لاقيس واتجهت صوبه، وتوقفت أمامه ونظرت اليه وهو أسفل منها -وكأنه كلب ذليل- وقالته له: "كل ما هو مطلوب منك أيها الطبيب الملحد الغبي أن تصدق بوجودي، أن تؤمن بوجود الشيطان، وأن الشيطان هو الفاعل المُشترك بالجريمة من وراء المشهد ومن خلف الستار".

فقد الطبيب صوابه أكثر فأكثر، وتزلزل الإلحاد داخله أكثر فأكثر، ودخل الإيمان بقلبه أكثر فأكثر أن الشيطان له وجود، ولكنه هرب من أفكاره حيث مسك ملف الفتاة ووقع أدناه، ورفع توصيته

كطبيب نفسي لإدارة السجن أن لاقيس مُختلّة عقليًّا، وتُعاني من إضطراب الهويّة، وهي خطير جدّا على المجتمع، لذلك نوصي بتنفيذ حكم الإعدام بها بأسرع وقت".

فقالت له لاقيس وهي تضحك: "أنت تعلم يقينا بوجودي، ولكنك رفعت توصيتك لتنتصر لنفسك لا أكثر".

وهنا خرج الطبيب مُسرعاً كجندي يهرب من وسط المعركة، واختفى...

مرّت السويعات حتى جاءت اللحظة المرقوبة، وعند تنفيذ حكم الإعدام للفتاة أمام الحاضرين، جاء الطبيب برفقة السجّان الذي سيُنفذ الحكم، فسأل الفتاة: هل من كلمات أخيرة يا إيزابيلا؟".

أجابت لاقيس: "إيزابيلا من ستموت، وأنا -لاقيس- من ستبقى".

ونفذ حكم الإعدام... وماتت.

بعد تنفيذ حكم الإعدام، وبمرور الأيام، أصيب الطبيب النفسي -فرانك- بمرض نفسي، وحاول قتل نفسه عدة مرات، وعندما تم إلقاء القبض عليه والتحقيق معه قال: "لست أنا من يريد أن يقتل نفسه، وإنما الشيطان هو من يحثني على ذلك".

تم عقد لجنة عُليا مجموعة من أطباء أعصاب ونفسيّين أكفاء لتقييم حالة الطبيب -فرانك- الذي أصر على أن الشيطان هو الذي يدفعه لإنهاء حياته، فأقرّوا جميعهم بأنه يعاني من مرض نفسي خطير قد يودي به إلى قتل نفسه والإنتحار.

تم وضعه في مصحةّ نفسيّة، وبعد قضاء فترته وتحسن حالته خرج ليجد نفسه مفصولا من العمل، ومهجوراً من قبل زوجته وأصحابه، فابتسم، وقال لنفسه: "على الأقل وجدت نفسي، وعدلت عن إلحادي، وآمنت أخيراً بوجود الشيطان".

الطبيب فرانك أصبح داعية، مؤمناً يطوف البلاد ليحذر الإنسان من الشيطان ومن وسوسته، وأنهُ هو الفاعل الرئيسي الخفي في كل الجرائم التي تحدث على يد الإنسان.

قصص واقعية

كان لها الأثر في حياتي

العمالقة والملعقة

لقد شاهدت أحد أجمل أفلام الممثل العملاق (سيلفستر ستالوني) وهو فيلم "Escape plane" بأجزائه، وتدور أحداث الفيلم حول أسر ستالوني بأكبر وأعظم وأقوى السجون المغلقة في العالم، ولكنّه لم يستسلم لظلمته، و لم يجلس مكتوف الأيادي، بل كان يقرأ في كل جولة له بالسجن -الفورة- أبعاده وتفاصيله وكل زاوية فيه من أجل الهرب.

وأثناء دراسته لهذا السجن المترسن والمستوف بالأمن، إلتفت إلى رجل كان يبرز الدهاء من ملامحه، يحاول هو الآخر الفرار بروحه من عتمة هذا السجن، والذي كان يمثل دوره الممثل المشهور (أرنولد) ومع مرور الوقت أصبحا صديقين، ووضعا أيديهم معاً لرسم خطّة للهروب من هذا السجن الكبير والمخيف والمحكم الإغلاق، وفي النهاية إستطاعا الهروب من السّجن بمعجزة، من خلال نفق حفروه "بمسمار".

هذه كانت قصة الفيلم باختصار، لكن هناك قصة حقيقية تجاوزت هذا الفيلم الخيالي بمسافات فلكية، قصة حقيقية عنونتها ب "العمالقة والملعقة"، قصة ستة عمالقة فلسطينيين من مدينة جنين يحوّلون الدراما إلى واقع، وهم (محمود عارضة، محمد عارضة، يعقوب قادري، أيهم كممجي، مناضل نفيعات، زكريا زبيدي) الذي تجاوزوا هذا الفيلم السينيمائي الرهيب، بل إنّهم قد تخطّوا كل ما أنتجته أفلام هوليود التي تحدّثت عن الفرار من السجون.

لا يمكن أن يتخيّل أي إنسان على وجه الأرض كيف خرج هؤلاء العمالقه الستة من سجن "جلبوع" المصمّم بأفضل تصميم وأحدث تكنولوجيا واستطاعوا المناص منه.

الحاكية باختصار... إستيقظ الصّهاينة كالمجانين على خبر هروب هؤلاء الشباب الستة، فهرعوا كالمصروعين ينظرون ويفتّشون عن آليّة فرار هؤلاء الشباب من وراء هذا السجن شديد التّعقيد وكثيف الحراسة، ليشاهدوا أنفسهم أمام حفرة صغيره تقبع أمام برج المراقبه العملاق، ليجثوا كالحمقى أمامها حائرين، مندهشين، كيف لهؤلاء الشباب الفرار من هذه الحفرة، والمصيبة كانت أن هذه الحفرة تقع أمام برج المراقبه العملاق مباشرة، ولكن لم يلحظ أحد ذلك.

المسؤول الأمني ذاب في فجاج الأرض بالإضافة إلى أمن السجن وجيش الإحتلال، بل إنّ كل إسرائيل فضحت لأنّها وقعت في مأزق وإحراج أمام العالمين، حيث أضحت أضحوكة على منصّات التواصل الإجتماعي، والسبب أن هؤلاء الشبان حفروا الحفرة بملعقة صدئة أسفل المرحاض القابع في السجن، مرروها بشبكات الصرف الصحي حتى أنهوا الفتحة عبر حقل زراعي، ولقد كان هذا الجهد جماعي وعظيم.

وهنا طافت الأسئلة في رؤوس العالم بأسره والتي كان من جملتها: كيف حفروا النفق بملعقة؟ وأين استطاعوا اخفاء التّراب الذي حفروه بهذه السرعة؟ وكيف لم يلحظ الحراس من على برج المراقبة

ذلك؟ وكيف أجروا إتّصالات هاتفيّة ضمن شبكة المراقبة الإسرائيلية التي ترصد دبّت النملة، ولكنها فشلت في اكتشاف هذا الهروب؟

ما حدث هو أقرب للمعجزة...

أعتقد جازماً أن يد الله كانت معهم، قال تعالى: وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

هذا الهروب الحقيقي وليس السينمائي هو من يجب أن يتجه إليه المخرجون والمنتجون لإنتاج أضخم عمل سينمائي مقتبس من قصّة حقيقيّة، قصّة العمالقة الستة، فلسطينيوا الجنسية، الذين حوّلوا الدراما إلى واقع، والذي نجحوا بكسر سجن "جلبوع" بملعقه صدئة، وجعلوا أسطورة ما يسمى -بالجيش الذي لا يقهر- أضحوكة للصغير قبل الكبير.

في النّهاية، كتب الشاعر السعودي (مهذل بن مهدي) يقول:

أتظن أنك عندمـــا أحـــرقتنـــي ... ورقصت كالشيطان فوق رفاتي

وتركتنـــي للذاريـــات تـذرنـــي ... كحلاً لعين الشمس في الفلـوات

أتظـن أنك قـد طـمست هويتي ... ومحـــوت تاريخي ومعتقـــداتي

عبثا تحاول .... لا فنـــاء لثائر ... أنـــا كالقيامـــه ذات يـــوم آت

أيها الفلسطيني....لا فناء لثائر، فأنت كالقيامة ذات يوم آت.

أنا لست رقماً

هي قصةٌ من آلاف القصص التي رويت على ثرى غزة، حيث كتب شاب فلسطيني من غزة على صفحته -الفيسبوك- هذه الكلمات قبل ثلاثة سنوات لمن فارقوا الحياة واستشهدوا من أهلنا في قطاع غزة، ولكنها في الحقيقة كانت تبدوا وكأنها ترثيه هو، وكأنه قفز بالزمن نحو المستقبل، صدقاً لا أعلم هل كان إياد يعلم أن كلماته هذه التي نثرها قبل بضع سنوات هي عزائه أم لا!

قبل الحرب على غزة -السابع من أكتوبر لعام٢٠٢٣م- نثر شاب يُدعى "بلال اياد عقل" على صفحته يقول: "اسمي بلال، عمري ٢٣ عاماً، وهذا شكلي في الصورة الشخصية على الفيسبوك، أكثر ما يخيفني هو ذكر موتي في استهداف -اسرائيلي- كرقم ضمن الأعداد التي تزيد كل دقيقة، كأن يقولون -ارتقاء شاب وثلاثة آخرين في استهداف اسرائيلي لمنزل مدنيين- أنا لست شابّاً عاديّاً، ولا رقماً، استغرقت ثلاثة وعشرين عامًا من عمري لأصبح كما ترون الآن، أنا لست عاديًا، لي بيت، وأصدقاء، وذاكرة، والكثير من الألم...أنا لست رقمًا".

لقد ختم بلال رحلته وارتقى إلى جوار ربه بعد ثلاثة سنوات من وضعه لهذه العبارات على صفحته الشخصية -الفيسبوك- في هذه الحرب الهمجية على أهلنا في قطاع غزة -السابع من أكتوبر لعام٢٠٢٣م- لذلك تذكروا كلماته هذه.. تذكروا أنه ليس عاديّاً، تذكروا أن له بيت وأصدقاء وذاكرة، والأهم من ذلك، تذكروا أنه ليس رقماً.... تذكروا أن كل قتلانا ليسوا أرقاماً.

رحمك الله يا بلال، ورحم جميع أموات وشهداء المسلمين.

الكلب النازح

أثناء حرب السابع من أكتوبر على غزة، دخل هذا الكلب بيتي مع مجموعة من الناس الذين كانوا يهربون من القصف في الليل، وأقاموا فيه حتى خروجهم في الصباح تاركين الكلب بلا اسم أو صاحب.

كان هذا الكلب يحفظ دخاليج البيت كأنه تربى هنا، يهرب من غرفة النوم الى أرض الديار، ومن الحديقة الخلفية الى سطح البيت متناغماً مع صوت الغارات في محيطنا، يتموضع في المكان الأكثر أماناً قبل أن تفزعه القنابل.

ظل صامداً معي ثلاثة أيام من لحظة الاجتياح، تقاسمنا الخوف والنباح والشظايا واللحم المعلّب، وللعلم لا هو كلبي ولا أنا صاحبه، لكننا نعيش معاً المصير نفسه.

خرجنا نركض ونقفز برشاقة من بين القذائف، لا نحمل شيئاً غير مفتاح لباب البيت المفتوح دائما، حفاة القلب والعقل والأقدام، شيدنا عريشة من الخِرَق القديمة وبعض البوص وسعف النخيل، نتناوب عليها مثل صديقين، أحدنا ينام ليحلم بالعودة، والآخر يسهر ليحرس الحلم والطريق.

لا هو كلبي ولا أنا صاحبه، هكذا كان يتعلق الغرباء في بيتي، فما بالكم أنا في الصورة.

هذه قصة كلب نازح وانسان مشرد في غزّة.

قصص

تشاركية

بقلم بعض الكتاب والأدباء والعامّة في فلسطين وخارجها

حسرةٌ في قلبِي

أعشقُ الفضَّةَ، وأفضِّلُها على الذَّهبِ، ولا سيَّما إن كانتِ المصوغاتُ الفِضِّيَّةُ قدْ دخلها حجَرٌ فيروزيٌّ، أو خرزاتٌ بلونِ الفيروز، كنتُ قدْ نسيتُ هذا العشقَ بسببِ مشاغلِ الحياةِ الكثيرةِ، لكنَّ سفري إلى مصرَ، وتجوُّلي في سوقِ بابِ الخليليِّ، أعادَ إلى واجهةِ ذاكرتي هذا العشقَ حينَ وجدتُ نفسي أمامَ محلِّ فضِيَّاتٍ جميلةٍ، فاشتريتُ سلسالًا من الفضَّةِ، وفيهِ اللونُ الفيروزيُّ الَّذي يروقُ لي كثيرًا معه.

لم يكن تصرُّفي ذلكَ إلَّا عودةً لا شعوريَّةً إلى حاراتِ الطُّفولةِ، وأزقَّةِ البراءةِ، فعندما كنتُ في المرحلةِ الابتدائيَّةِ -أعتقدُ في الصَّفِّ الثَّاني- كانَ لدَيَّ سلسالٌ فضِّيٌّ أحبُّهُ كثيرًا فيه إبريقٌ على شكل الوعاءِ الّذي تُسكَبُ منهُ القهوةُ العربيَّةُ (الدَّلَّة)، مزيَّنٌ بخرزةٍ زرقاءَ ناتئةٍ، ومازالَ ذلكَ السِّلسالُ حسرةً في قلبي لكثرةِ ما كنتُ أُحبُّهُ.

وكانتْ صديقاتي معجباتٍ كثيرًا بهذا السِّلسالِ، فقدْ حاولتْ إحداهُنَّ أنْ تقنعَني باستبدالهِ بستِّ أساورَ ملوَّنةٍ تلبسُها، وأخرى طلبتْ أنْ تشتريَهُ منِّي، لكنِّي رفضتُ، وقلتُ بأنَّه هديَّةٌ مِن أمِّي -رحمها الله- بمناسبةِ عيدِ ميلادي.

بعدَ بضعةِ أيَّامٍ، وبينما أنا عائدةٌ إلى البيتِ برفقةِ إحدى صديقاتي، رأيتُ على الأرضِ تعليقةَ صدرٍ حمراءَ جميلةً على شكلِ حبَّتينِ منَ الفريزِ، فانحنيتُ، وأخذتُها قائلةً لصديقتي: "تعالي معي كي نسلِّمَها للإدارة!"، لكنَّها رفضتْ، وأشارتْ إلى الخلفِ قائلة: "انظري الازدحامَ بالكادِ خرجنا من بابِ المدرسةِ، عدا عن ذلكَ أنتِ وجدتِها هنا، أي أنَّها قد لا تكونُ لطالبةٍ منَ المدرسة".

وقفتُ حائرةً، كانت تعليقةُ الصَّدرِ جميلةً سحرَتني بلونِها، وشعرتُ وقتَها بما يقولُهُ المثل: "يا جامِع إنت مسكِّر وأنا مرتاح!"، مشيتُ مع صديقتي باتِّجاهِ البيتِ، ولمَّا وصلتُ، بعدَ أن غيَّرتُ ملابسي، غسلتُ يديَّ وكذلكَ التَّعليقةَ، ثُمَّ سارعتُ إلى وضعِها على قطعةٍ مِن ثيابي في خزانتي، ولم أخبرْ أحدًا بها.

بعدَ أسبوعٍ عدتُ من المدرسةِ، وتفاجأتُ بأنَّ سلسالِيَ الفضِّيَّ ليسَ في رقبتي! بحثتُ في ثيابي لعلَّهُ انقطعَ وسقطَ فيها، لكنِّي لم أجدْ شيئًا. جلستُ حزينةً أفكِّرُ أينَ يمكنُ أن يكونَ سلسالي، وبعدَ قليلٍ سمعتُ صوتَ أمِّي تُناديني كي أتناولَ طعامَ الغداءِ، فجلستُ مكتئبةً، آكلُ وأنا شاردةُ الذِّهنِ، وفجأةً أجهشتُ في البكاءِ، وعجِبَ الجميعُ من أمري، سألوني ما بكِ، فأخبرتُهم بأمرِ سلسالِيَ الضَّائع.

قالتْ أمِّي مؤنِّبة: "قلتلّك ١٠٠ مرّة لا تلبسيه عالمدرسة!"، قال أبي مواسيًا: "غدًا تسألينَ عنهُ في الإدارةِ، لعلَّ أحدًا وجدَه، أكملي طعامَك، ولا تبك"، أمّا أخواي، فلم يعنِهما الأمرُ كثيرًا، شعرتُ بالغيظِ وقتَها، وبأنَّ الصِّبيانَ بلا مشاعرَ، وبلا قلوبٍ أيضًا! وبينما أنا مغتاظةٌ منهُما، قالَ أحدُهما ببرود:" مشان هيك عم تبكي!"، فدعوتُ عليهِ في سرّي:" انشالله بتضيّع أغلى لعبة على قلبك!"

في المساءِ حاولتُ النُّومَ كثيرًا، كانَ سلسالِيَ الجميلُ يتراءى لي، تخيَّلتُ أنَّ طفلةً غيري سعيدةً بهِ، تُعلِّقُهُ على صدرِها، وتزهو به، وفجأةً خطرَ في بالي أمرٌ، فنهضتُ، فتحتُ خزانتي، تأمَّلتُ تعليقةَ الصَّدرِ، قلتُ لنفسي دامعةَ العينَينِ: "لا شكَّ صاحبتُها بكتْ عليها، كانَ ينبغي أنْ أضعَها في الإدارة ولو تأخَّرتُ في العودةِ إلى بيتي، أشعرُ أنَّ الله عاقبَني، فأضعتُ سلسالي!".

في صباحِ اليومِ التَّالي اعترفتُ لأبي لأنِّي أعلمُ أنَّه لن يوبِّخَني مثلَ أمِّي، فقالَ لي: " لا تُعيديها مرَّةً ثانيةً، فما نجدُهُ أمانةٌ ينبغي أنْ نرجعَها لأصحابِها".

في المساءِ عندما أويتُ إلى سريري، بكيتُ، لكنْ ليسَ على سِلسالي، بل لأنِّي أخطأتُ، بكيتُ، وطلبتُ منَ اللهِ أنْ يسامحَني! نعمْ كنتُ صغيرةً، لكنَّ شعوري بالذَّنْبِ كانَ كبيرًا، وربَّما كانَ أكبرَ منِّي، كنتُ أشعرُ بنعاسٍ شديدٍ، أشتهي النَّومَ، لكنَّ ضميري كانَ صاحيًا يؤرِّقني، مَن قالَ أنه ليسَ للأطفالِ ضمائر؟ ومَن قالَ إنَّ ضمائرَهم تنامُ كثيرًا كما الكبار؟!

بقلم: ميَّادة مهنَّا سليمان
سورية / دمشق

نهاية المزارع

يوم جميل مليء بضحكات التجار من ميكانيكي الى بائع الى مهندس الى... وسبب الضحكات هذه هي الاموال التي كانت تتدفق كالشلال الا المزارعين، ولكن دوام الحال من المحال، فقد تبدّل حالهم من أصحاب رؤوس أموال الى أفقر الناس بالمدينة.

كان ذلك بسبب المحصول السيء، لكن هؤلاء المزارعين كانوا أقوى من كل نازلة دبّت بهم، فأكملوا الطريق ووجدوا مخرجاً فيه، وهم في حالة جيدة نوعاً ما، لكن هناك مزارع واحد من بينهم ضل الطريق، فاتجه إلى صيد الاسماك لتدبير اموره.

كان يخرج في وضح النهار للصيد، وكان يعود إلى عائلته بالصيد الوفير، لكن في أحد الأيام لم يحالفه الحظ ورجع خالي اليدين.

توال حظه النحس، وكأن الأسماك هاجرت إلى كوكب آخر، وفي احدى الليالي وأثناء عودته الى المنزل وجد سلحفاة، كانت تمشي في منتصف الشارع، وكانت السيارات تمر مسرعة عن يمينها وشمالها، فأوجس هذا الرجل في نفسه خيفة عليها، وركض نحوها، وحملها، ووضعها على الرصيف، وفي إبان ذلك سقطت جوهرة من بيت هذه السلحفاة وهي تمشي على الرصيف، فأمسك بها هذا الرجل وأسدلها في جيبه، وغيّر وجهته نحو محل لبيع الذهب.

عرضها على البائع للفحص، ففتح فمه من العجب وقال له: "اقسم لك اني لو أعطيتك محلي بما فيه لن يكفي لسد ثمن هذه الجوهرة، فاذهب الى بائع الألماس".

أخذ هذا الرجل جوهرته واتجه بها نحو بائع الألماس، وعرضها عليه، فأجابه بذات الشيء، ولكن قدم له نصيحة بأن يوفر عناء بحثه عن مشتري لهذه الجوهرة في المدينة، وأن يتجه بها نحو الملك مباشرة، فهو الوحيد القادر على شرائها.

فذهب الى الملك وطلب مقابلته، وبعد جهد وافق الملك على رؤيته عندما سمع بموضوع الجوهرة، فأدخله قصره، وعندما أمسك الملك الجوهرة بيده قال له: "سأمنحك ستة ساعات أن تأخذ من قصري ما تشاء مقابل هذه الجوهرة"

غمرت الإبتسامة وجه المزارع، وقال للملك: "أي شيء!"، فرد الملك: "أي شيء"، فركض هذا المزارع نحو مائدة الطعام، وأخذ يلتقط منها كل أنواع وأشكال الطعام، ويقضم من هنا، ويبلع من هناك، حتى انتفخ بطنه وأصبح لا يقوى على الحراك، فجلس ليرتاح على فرش الحرير بالصالة، واذا بعينيه تستلم للنوم.

أيقظه الحارس، وهو يقول: "انتهت الستة ساعات، هيا اخرج من القصر"، فرد المزارع كالمقروص "لالا.... اعطني دقيقة واحدة فقط".

فردّ الحارس: "هذه أوامر الملك، وإن لم تخرج سيزج بك في السجن مدى الحياة، وإن فكرت في المقاومة لن يعرف لك البشر أثر"، ثم صرخ في وجهه: "هيا اخرج".

وهذه هي نهاية المزارع.

بقلم: رنيم محمود رفيق
فلسطين / جنين

رسالة في مكتبتي

في مدينة صغيرة، كانت تعيش امرأة تُدعى "ليلى"، وكانت تعمل في مكتبة قديمة ذات ارتفاع سامق وأعمدة رخامية عتيقة.

ليلى كانت ممتلئة العقل بأثقال العلم المتنوعة، كيف لا وقد كانت وظيفتها أمينة هذه المكتبة، تطوف بين رفوف الكتب المهترئة، وتنشب يدها بين أرتال الصحف المكدّسة، وتقرأ كل ما تيسر لها منها.

وفي يوم من الأيام وهي ترسل نظرها في بهو هذه الرفوف، وقعت عينها على كتاب قديم كان الغبار قد ابتلعه، مدّت يدها نحوه ثم أخذت تكفكف عنه الغبار، حتى تجلى لها اسمه، وإذا بها رواية "الحب في زمن الكوليرا" للكاتب الكولومبي "غابرييل غارسيا ماركيز".

أخذت تتفقد أوراق هذه الرواية، وإذا برسالة رثّة في قلب صفحاتها، كان الزمن قد أكل بعضاً من زواياها، فتحت ليلى هذه الرسالة، لتجد فيها عبارات حب من رجل يُدعى "يوسف" يكسر فيها صمته ويعترف بعشقه لإمرأة تُدعى "عائشة"، وأنه على استعداد تام أن يفعل المستحيل وكل ما يتطلبه الأمر كي تكون مسكنهُ وموطنهُ في يوم من الأيام.

نشبت العاطفة أسنانها في قلب ليلى عقب قرائتها رسالة الحب هذه، وشعرت وكأنها تعيش أحداث رواية عشق حقيقية كتلك الرواية -الحب في زمن الكوليرا- التي تحملها بين يديها.

ومع تعاقب الأيام، لم تستطع ليلى الإنفكاك عن التفكير في فحوى هذه الرسالة ومصير كلٍّ من يوسف وعائشة، ولو كان بيدها حيلة لقامت بجر الزمن لتخمد نيران الأسئلة المُتقّدة في رأسها، حيث كانت تتسائل: هل اجتمعا سويّا؟ أم أن الزمن قطع الحبل بينهما؟

وفي أحد الأيام، وإذا برجل مُسن قد بلغ من الكبر عِتيّا واشتعل رأسه شيباً يفتح باب المكتبة ويدخل إليها، أرسل عيونه الجاحظة نحو ليلى ثم انعطف بخطوات بطيئة حتى وقف أمامها، وسألها عن رواية "الحب في زمن الكوليرا"؟ فقالت له ليلى: "هي في هذا الرف يا سيدي"، مدّ هذا العجوز بيده المترهّلة والتي كاد أن يسقط اللحم منها نحو الرف، ثم أمسك بها وعينه مدموعة، وأخذ يُقلّب بصفحاتها كالتائه الذي يبحث عن شيء، فقالت له ليلى: "بيدوا أنك لا ترغب في استعارة الرواية!"، فأجابها العجوز: "كلا، كنت أفتش عن أمر ما"، فسألته ليلى: "هل لك أن تخبرني ما هو، لعلي أستطيع مساعدتك؟"، فأجابها وبالكاد كانت أن تخرج الكلمة من فاه: "رسالة... أبحث عن رسالة".

عقدت الدهشة لسان ليلى، وسألت هذا العجوز: "يا عم.. هل يمكنك أن تخبرني باسمك؟"، فأجاب: "أنا يوسف"، نفضت ليلى رأسها من الذهول وقالت: "بعض المشاهد لا تصدق، وبعضها لا يقع حتى في الخيال! أنت يوسف!!"، فرد العجوز: "نعم... أنا يوسف، هل تعرفينني؟"، فردّت ليلى: "أنا أعرفك من خلال رسالة في مكتبتي، كانت في قلب هذه الرواية التي تحملها"، أومأ برأسه العجوز وقال بحزن شديد: "إذن، لم تأخذها".

فتحت ليلى باب درج مكتبها، وأخرجت منه الرسالة وأعطتها لهذا العجوز، فأخذها كما يأخذ الميت ترياق الحياة وانفجر بالبكاء كما الطفل الصغير، أخذته ليلى بحضنها حتى سكن حزنه، وسألته بتلهّف: "هل لي أن أسألك عن عائشة؟ وماذا حلّ بينكما؟"، فردّ هذا العجوز: "لقد كنت جنديّاً، وتم استدعائي للحرب، وكان حب عائشة ينهش وجداني، وكانت تبادلني ذلك بأعينها من بعيد، ولكني لم أكن لأعلم تراتيب القدر وما يخفيه في جعبته لي ولها، فوضعت لها هذه الرسالة والتي أفصح من خلالها عن حبي الشديد لها في بطن هذه الرواية"، فسألته ليلى وقد غلّفت الدهشة صفحات وجهها: "ولما هذه الرواية -الحب في زمن الكوليرا- تحديداً؟"، فردّ يوسف: "لأنها كانت تستعيرها بشكل دوري للقرائة"، ثم سكت لوهلة وأردف يقول: "لا ألومها، فقد غبت في هذه الحرب لثلاثة سنوات، وأشيع عني أني قد قتلت فيها، لعلها مضت في حياتها مع شخص غيري"، ثم ختم يقول وأعينه تفيض من الدمع: "إن ما تبحثين عنه يا ليلى أنا أبحث عنه أيضاً، أنا لا أعلم أي شيء عن عائشة؟ ولا أدري في أي بلد تسكن؟ لكن كل ما أعلمه أنها تسكن في قلبي ها هُنا، وأنها تطوف في خلايا جسدي، وأني أحبها جدّاً".

ثم أعاد هذا العجوز -يوسف- الرسالة لي، وقال لي: "احتفظي بها يا ليلى"، وغادر المكان.

بقلم: دانية
فلسطين / نابلس

جنازة في مهب الريح

مازالت تلفظ انفاسها... شهيق وزفير، عندها ماكان بوسعي إلا لملمتها في كفن مفتوح، فكم هي كثيرة وثقيله.

انظر يميناً وشمالاً، اسرق قِطعاً من الليل حتى لايراني أحد، لأحدد مكان القبر في عتمة الليل...

حفرت القبر بيدي النادمتين، فجأة.. أدركت أن ذنوبي التي لملمتها في ذلك الكفن وحفرت لها هذا القبر بيدي بعيداً عن الخلق كي أواريها لاجدوى منها في الآخرة.

عندما تخرج الأرض أثقالها يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، فما كان الكفن والقبر سوى رحمة وستراً من الله في الدنيا...

ولكن هيهات هيهات، فما زال الكفن يتسع، ومازال القبر فراغاً فاه....

بقلم: ختام خالد كفاية
الأردن / الزرقاء

نوستاليجا الحب

قصة الحنين ... فراق زوجين من العراق وفلسطين أنجبا ابنة اسمها نورهان حرمتهم القيود الحدودية أن يعيشان معاً لأسباب معينة ...

أنا ابنة الحب المسكون في عمق الحقيقة المسلوبة، أنا ابنة جمعت قلبين من سراب وأمدتهم بعذب ماء يروي صحراء الشعور، قلبان نزفا حباً ومتاهة.

قالت أمي لأبي: "كنت أحط رحالي عندك عندما يرهقني الذبول وتلوح أمامي أوجاع السنين ساخرة، عندما سألتك عن مكان إقامتك أخبرتني أنك من العراق اختلفت مسيرة دمي، وكأن بلاد اللجوء باتت باردة قاحلة الجدب، وبات الليل هزيلاً ممتنعاً عن النوم، ومن هنا بدأت بسؤالي لماذا؟" فقد كانت أمي من فلسطين الحبيبة".

وجه أبي المحمل بلفحات الحنين تعلوه ابتسامة وطن نام على الجرح وحمل في نفسه ألم الصبر، ولاذ إلى طريق توعرت مسالكها، عانت أوجاع بلا هوادة.

وقدسية أمي التي تحصنت بالسكوت الذي تجمهر في وقت كان الصمت فيه تعويذة وكان البوح جمراً يهوى بداخلها في مسارات ظل أخذت تردد عبارات الهوى في مناجاة تناغمت وسط سطور أدبية تكتبها لتفرغ ألمها. وأنا بين يدي النجوى رفرفت قرب السواقي وهمت مع أطيار السماء.

لمعت عيناي أمي كطفل بوميض لكنه وميضا مشوبا بمرارة، لم تعرف يوماً كيف تكون السعادة، تبادر إلى ذهني لماذا لم تبلغ أمي السعادة؟ وما الذي كان ينقصها حتى تبلغها؟ وكيف لي أن أغمض عيني عن حلقة جافة أنام فيها، وهل بالإمكان انتهاز فرصة أخرى من الحياة حتى أخرج من دورتها وأعود بها إلى الوراء لتغيير مسار حياتنا ولو بأملٍ ضئيلٍ أجتث فيه آلامهما التي حفرت في الذاكرة.

يعود بنا السؤال والتعجب من السؤال / لماذا؟ لماذا ولدنا على هذه الأرض مسلوبي الحرية؟ وما الحكمة من وجود الفكر والوعي والنضج مسلوبي الإرادة، في ظل قيود الحدود والمنع الدولي والاحتلال الجائر، فلا تفسير منطقي لهذه الحقيقة.

في ذات ليلة جلست مع أمي تحت وخز البوح ...تحدثني عن ولادتي وقالت: كم مكثتُ في الفراغ تحت لسع البرد، وكلما اشتد هممت أن أهرول إلى روعة دفء، توقظني في الآونة الأخيرة من معضلة الوجود، كي تبقيني على قيد التحمل.

ما هذا الصدع المتردم في صدريهما، وكيف لهما أن يكونا كائن واحد.

همهمت النفس على مضض بصوت غير مسموع لايعرف مغزاه، وكل همهمة صوت كان معه بحيح، وجالت في الذاكرة خواطر كانت قد تسربت من خضم الوجع، كل ما مددنا أيدينا لنردم هوة

في داخلنا أمست مهترئة من مسافات لم ترى الحب، قاطبة أضحت حزينة، هل لنا أن نحلم وهل لحلمنا مبعث نور يوحي لنا بأنه يوما ما .. لابد لنا من الالتقاء ولابد لنا من التحليق عاليا .....

تعالوا أحدثكم اليوم عن صدق تلحف بوترات حس إلهي:

أبي ـ هذا الرجل الذي لم يع معنى أن يكون طفلاً يوما ولم يع كيف يحيا المراهق، وكيف يكون شكل النورعندما يشق خيط الفجر ظلمة الليل ويسقط قطرات الندى فوق أكمام الشجر وتيجان الزهر ...

لم يدرك قهقهات الشباب الصاخبة، وجحافل الشوق المارة فوق صدر عاطفة تعلو تارة وتخبو تارة .

فاسمعوا هذا الضجر حين أمي كانت تقول:

تضعني الحياة في بوتقة ضيقة وتطلق سراحي في صندوق صغير، وحين تراودني الهموم، أبوح لنفسي عن نفسي بكل مرة اغتالني فيها القدر، هذبت إحساسي بصوت خافت أعلمه أن الصوت محفوفاً بالخطر، وأن الصمت محفوفاً بالخطر، والمضحك بالأمر أنني أحمل معي حكمة ترافقني دوماً وهي " سر النجاح على الدوام هو أن تسير إلى الأمام ". حكمة أشبه بحكمة لجام الحديدة التي تكون في فم الفرس لإحكام جماحه. ولكن ماألهمني الصبر أن رأس حكمتي كان مخافة الله، كما كنت أحمل حكمة أهل الفلسفة والعلم والتبصر في ضبط النفس والتروي، حكمة أصدرت فيها على قلبي بالسجن المؤبد ألماً، وكتمت جماحه بحجة الوعي والرأي السديد، وتركتها ترعى أحوالي بحضور أطراف الدعوى بكل حكم جائر عن الحق ومنافي للعدل صادر في حقي أنا، حق المحكوم عليه بالغياب الدائم، ولم يكن هناك أحكام استثنائية تقتضي تعليق القوانين بحقي، والله أعلم بما أراد. فردوا إليّ حكمتي فقد نمت في عقائقها سنيناً طويلة.

بقلم: حنان كامل خروب
فلسطين / قلقيلية

كنت أحلم

كنت فتاة ذات خيال واسع، أغمض عيني وأغوص في بحر أحلامي لساعات طويلة، كنت أحب الورود والقصور والفساتين والمكياج والعطور والمراكب الفارهة، أذهب للنوم كي أحصل عليها هناك، وأركب كالأميرة العربة التي يجرها الحصان الأبيض في ذلك الفضاء.

كنت أسعى للظهور بأجمل صورة ممكنة من الداخل والخارج في حدود رؤية الدين، ولكن كانت لي بعض المخالفات، حيث لم أكن ألتزم باللباس الشرعي، وكنت أضع بعض المكياج على وجهي، وكنت لا أصلي، مع أنني كنت فتاه بسيطة ومن بيئة محافظة، ذات وضع مالي متوسط، إلا أنني كنت أحب أن أبدوا جميلة الهيئة، لا انظر الى الشكليات كثيراً، ولكني كأي فتاة أنظر لنفسي كأميرة تنتظر فارسها.

أحب ذلك، لكن لم يكن جُلّ تفكيري مصبوب نحو تلك الأحلام، فقد كان لدي اهتمامات أخرى، لكني ذكرت على تلك النقطة لهدف ستعرفونه لاحقاً.

تمنيت ان أعيش قصة حب خيالي وأسطوري لا مثيل له في الأفلام ولا المسلسلات، مع شخص يقدرني ويراني كما ارى نفسي، أميرة ذات قلب أبيض وبريء كالأطفال، وأعيش معه في قصرنا الجميل المحيط بالزهور والطيور والأنهار العذبة، تماماً كسندريلا أو سنو وايت أو كأي قصة من قصص أميرات ديزني.

مرت الأيام، وكبرت، وأكملت دراستي في كلية الفنون التشكيلية، وتمت خطبتي، وتزوجت، وأنا ما زلت تلك الفتاة البريئة التي تعيش على أمل أن تكون أميرة وتعيش احدى قصصهم في كنف زوجها.

ولكن سرعان ما صفعني الواقع، وأشاح بوجهي حول كل مفاهيم حياتي عن الزواج، لم أكترث كثيراً، واستمرت الحياة، وكان كل ما أريده أن أعيش حياة مليئة بالحب والتفاهم والإحترام والإهتمام، ولكن يا للأسف، تعرضت لأشد أنواع التعنيف الجسدي والنفسي من زوجي، ووصل بي الحال لطريق مسدود، واخترت أن أنسحب وأطلب الطلاق، وتنازلت عن جميع حقوقي في سبيل أن أكسر استعباد ولكمات هذا الهمجي والبربري بحقي، وتم الطلاق.

كانت الأيام تمر بصعوبة وشدة على قلبي المكسور، ولكني أكملت حياتي، فبحثت عن عمل حتى وفقني الله في احدى الوظائف، كان يجلس بجانبي على ديسك المكتب احدى زملائي، والذي كان يلاحقني دائماً بنظراته ويختلق الأعذار كي يتكلم معي.

وفي النهاية تقدم لخطبتي، فوافقت، وشرحت له حالي ووضعي مع طليقي السابق الذي كان يُعنّفني، فأخبرني أنه سيحميني وسيُعوضني عن كل ما فات، وكانت النتيجة أنه فسخ الخطوبة وتخلّى عني.

كانت صدمة كبيرة هزت كل وجداني، وجعلتي أحدّث نفسي على إثرها كثيراً، وأسألها: "هل هذا ما تستحقه الفتاة الطيّبة والمؤدّبة والمحترمة؟ ما الذي فعلته يا رب حتى يحصل لي كل هذا؟"، كنت اسمع رأي من حولي حول مسألة "القلب الطيب، أو الشخص الطيب"، فيقولون: "في مجتمعاتنا -الانسان الطيب والعفوي- لا يستطيع العيش في هذا الزمن، ولا مكان له فيه، ويجب أن يكون الإنسان وحشاً كاسراً كي يستطيع التعايش مع الناس".

كنت ألوم قلبي دائماً، وأوبخه، وأقول له: "يجب أن أنزع الطيبة منك، وسأسعى أن أنزعها منك في يوم من الأيام".

حاولت مراراً أن أتقمص شخصية الفتاة الذكية والحذقة والتي لا تفوتها فائتة، وكنت كلما ألبس تلك الشخصية أفشل أمام قلبي الطيب الأبله.

عشت مرحلة قاسية، ومررت بظروف صعبة جداً في مجتمع ينظر للفتاة المطلقة على أنها فرصة يجب استغلالها والعبث بها بكل الطرق، وما أصعب المسألة عندما تكون المرأة جميلة ومطلقة مرتين كحالي! أذكر أني وضعت الخمار على وجي في احدى الفترات كي أتفادى نظرات الشباب الأرعن والشهواني الحيواني إلي.

بعد فترة وجيزة تم زواجي من أحدهم، وأنا الآن اعيش معه، أحببته لاحقاً، لكن ليس هذا هو المهم، المهم هو أني دخلت برفقته الى عالم آخر جديد، أدركت من خلاله أننا لسنا في الجنة وإنما في الأرض، حيث أن هناك مساحة للشر وللفساد على ساحتها، لكني عبر هذا الزواج كنت أحظى بالإحترام والإهتمام على الأقل.

مرت الايام بصبة زوجي هذا، والتي علمت في إبانها أني كنت بعيدة كل البعد عن الله تبارك وتعالى، فلم أكن اصلي، ولم أكن أقرأ القرآن إلا في رمضان، ولم أكن ألتزم باللباس الشرعي الفضفاض الذي يستر المرأة من أعين ذئاب وكلاب الشارع، وكنت أضع مساحيق التجميل، وأتعطر أحياناً عند الخروج من المنزل، ولكني داخليّاً كنت أعلم أني أسير في الطريق الخطأ، ولست راضيةً عن نفسي أبداً.

واليوم، وأنا أبلغ من العمر ٣٦ عاماً، وبعد زواج دام خمسة سنوات، قررت أن أتغير، والذي دفعني الى التغيير هو حب الله، فلعل الله ابتلاني بما سبق لأنه يحبني ويرغب في عودتي الى المسلك الصحيح نحوه عز وجل.

اتخذت طريقاً جديداً أسير به، فكان أول ما قمت به هو أني اشتريت لباساً شرعياً كاملاً، وارتديته، ثم قمت بالإستماع إلى دروس وأشرطة الدين، والتي تتحدث عن اسماء الله الحسنى، وعن الجنة والنار، وعذاب القبر.

بكيت كثيرا كثيرا، واستغفرت الله كثيرا وكثيراً، وعاهدته ان التزم، وكان اول يوم في الإلتزام من أصعب أيام حياتي، حيث اتزمت بالصلاة وبالذكر وقرائة القرآن، وخرجت من المنزل دون أن

أضع المكياج، وفي لباس شرعي كامل. كما أنني أدركت أن الطيبة نعمة، لأنه جاء في الحديث عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والحمد لله، منذ ذلك اليوم لم أذق طعماً للسعادة والطمأنينة كالتي أنا عليها اليوم.

كنت اظن أن احلامي الخيالية لن تتحقق، وأن كل ما تخيلته مجرد وهم لا صحة له، ولكن بعد أن عرفت الله علمت أن كل ما قدره وكتبه الله من خير وشر هو لامتحاني، فالخير كي أشكره عليه، والشر كي أعود إليه. وأن أحلامي ستتحقق عند رب كريم رحيم لطيف ينتظرني ف جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

بقلم مي سليمان
السعودية / الرياض

أنا وأخي

كان عالمنا في باكورته غامضاً، لا نعلم عنه أي شيء عندما فتحنا أعيننا، كان المكان ضيقاً ومظلماً، وبالكاد كنّا نستطيع أن نمد بأجسادنا، أو أن نفرد أيدينا وأرجلنا، كنّا نشعر أننّا داخل صندوق أسود محكم الإغلاق، نتشقلب فيه كي ننفّس عن أرواحنا، ونركله أحيانا بأرجلنا التي بالكاد نراها وسط ليل أزلي وأبدي وسرمدي.

كنّا نسبح في داخله كما تسبح السمكة في الماء، أو كما يسبح النجم في السماء، نمرر أصابعنا وسط هذا السواد محاولين أن نكتشف أين نحن، ونتسائل: "هل يتواجد عالم آخر بالخارج خلف هذا الصندوق الذي نتقوقع فيه؟ هل يوجد فيه شمس؟ وكيف شكلها؟ وهل سنرى وجهها في يوم من الأيام؟ أم أننا سنبقى للأبد في ظلمة هذا المكان؟". كان حلمنا الوحيد هو الخروج من خلف جدران هذا الصندوق.

أحياناً يجرنا الفضول لاستراق السمع عبر جدرانه، فينفذ إلى مسامعنا أمواجاً من الصياح والصراخ والبكاء، وكنّا أحياناً نسمع صوت انبجاسات وانفجارت، كان الخارج مخيف، لكن على الأقل تيقنّا أن هناك عالم آخر في الخارج.

لقد أحصينا أيامنا في هذا الصندوق، والتي بلغ طولها -٢٧٠- حتى جاء ذلك اليوم التي ضربت فيه أشعة الشمس وجوهنا، ما أجملها! وما أدفئ نورها! ثم ما لبثنا حتى أسدلت الأيادي لانتشالنا من رحم هذا الصندوق.

كان من ضمن تلك الأيادي الحانية والدافئة يد جدتي، جدتي التي ركبت الطريق على عجل من المملكة العربية السعودية حتى حطّت ركابها في غزة كي تستقبلنا وتطبع قبلاتها على جبهاتنا، وهنا بدأت حكايتنا عند إنطلاق زفراتنا -أنا وأختي- من رحم أمي في احدى المشافي المدمرة القابعة في قطاع غزة.

قبل بضعة أسابيع على قدوم التوأم...

بعض الأخبار تُصدق، وبعضها يصعب تصديقة، ولكنه كان خبراً استثنائيّاً جعلني أقفز كالملدوغ، كيف لا، والقادم من أحشاء زوجتي على بقعة الدم هذه توئماً.

رقصت قلوبنا عندما تلقّينا الخبر، وإمتزجت الأفراح والمخاوف معاً، حيث كان قدوم التوأم مفاجئاً على بيت يكبره طفلان "خالد، إيفانا"، وليس هناك فرد من عائلة زوجتي لكي تلقي بحملها الثقيل على كاهله، حيث أنهم يقيمون جميعاً في المملكة العربية السعودية.

لكن حينما تلقت حماتي خبر حمل ابنتها بالتوأم لم تتمالك نفسها، وصرعها حنينها إليهم، فغادرت المملكة العربية السعودية واتجهت نحو القاهرة مروراً بحدود معبر رفح، حيث رافقها في رحلتها هذه عددٍ من المقربين الذين كانت المرة الأولى لقدوم البعض منهم الى غزة.

ركبت الطريق برفقة زوجتي متجهين نحو المعبر لاستقبالهم، دخلنا صالة الانتظار، وجلسنا على المقاعد وقلوبنا تقفز فرحاً لفرط اشتياقنا لرؤيتهم -وخصوصا حماتي- وما ان نظرت الى زوجتي حتى رأيت أعينها تفيضُ غيثَ سنينٍ عجاف.

بعد ساعات من الإنتظار، بانت حماتي ومن برفقتها مع آخر الوافدين، كانوا يترنحون من التعب، وما أن وطأت أقدامهم الصالة حتى خرّوا جميعًا ساجدين، وأخذوا يقبلون تراب غزة في مشهدٍ بدأ وكأن رؤيا يوسفَ فيهم قد تحققت، كان ذلك مساء الخامس من أكتوبر، وكان الجو جميلاً، وعند دخولنا إلى المنزل هرع الجميع نحو الكهرباء، البعض يريد إشعال الضوء، والبعض يريد تشغيل التكييف، والبعض يريد أن يحضر على التلفاز، والبعض يريد شحد هاتفه، ولم نكن نعلم جميعنا أننا سنودع الكهرباء بعد يومين.

كان الأقرباء مندفعين للتعرف على غزة، وعلى لطيف صوتها، ولذيذ طعامها من المأكولات البحرية، والأستمتاع بنسيم بحرها الهادئ الذي يشهدُ على ضفافهِ قصص الصمود والتحدي.

أما حماتي فقد كان جُلّ همها أن تنشل عن ظهر ابنتها الحامل -زوجتي- عناء أطفالي، فتقاسمت المسؤولية معها وقامت برعاية ابنتي "إيفانا"، وزوجتي قامت برعاية إبني"خالد"، كانت الزيارة وكان مؤقتة بمدة أقصاها عشرةُ أيام.

السادس من أكتوبر صباح يوم الجمعة...

كان يوم الجمعة، السماءٌ صافية، والجوٌ جميل لنخرج ونتناول السمك على ساحِل البحر، استيقظت وأيقظت زوجتي والتي كانت كسلحفاة مدرّعة تتثاقل بمشيتها بسبب بطنها الكبير الذي يتلوّى بداخله التوأم اللذان بلغوا -٣١ أسبوعا- لتعد الفطور لضيوفنا، أما أنا فقد ذهبت لأداء صلاة الجمعة في أحد أقدم وأكبر مساجد غزة "المسجد العُمريّ"، بعد ذلك جلسنا نتسامر الحديث مع الأقارب والأحباب، ونتبادل المُزاح والضحكات، ولكن بدا التعب أكثر وأكثر على مُحيّا زوجتي، فلم يتبقى سوا بضعت أسابيع على قدوم التوأم.

السابع من أكتوبر...

كانت ليلة هادئة تخللها السرور وصخب الذكريات والأحدايث أللامتناهية، حتى نام الجميع، وفي بزوغ شمس السابع من أكتوبر حدث مالم يكن في الحسبان، حيث استيقظنا كالمقروصين ولكن ليس على صوت المنبه، وإنما على صوت القذائف والصواريخ.

لم نكن لنستوعب ماذا يحدث في صفحات السماء، خطوت نحو النافذة لأعاين الحدث، وإذا بالإحتلال الإسرائيلي ينثر أذرعه في كل مكان، صراخ هنا وبكاء هناك، أنين هنا وعويل هناك، أرسلت عيني بين جذوع الواقفين من ضيوفي، حيث كانت وجوههم مخطوفة.

انطلقت محاولاتي لتلطيف المزاج، وتهدئة الحال، ولكن صوت الإنفجارات هدم كل محاولاتي، ألجم الخوف الجميع حتى التوأم في بطن زوجتي، انتظمنا في حلقات داخل غرفة واحدة، واقتربنا من بعضنا البعض، وبقينا في منزلي تحت زخات الصواريخ لعدة أيام، وكان المشهد كما وكأن الشمس أشرقت بالليل وسط جثث تطاير في كل مكان، هي لحظاتٌ حتى ينطفئ نورالصواريخ المشتعلَ آخذاً معه صفاً ممن عرفناهم ولم نعرفهم.

بدأ الإنذار بالأخلاء للعديد من المربعات السكنية وكانت منطقتنا إحداهم، حملنا القليل من المتاع وخرجنا جميعاً على الفور، وأثناء مغادرتنا للمنزل كان حال الجيران كحالنا، نزحنا جميعاً بقلوبنا المُثقلة نحو حتفٍ لا نعرفه.

كنا نمر من بين الجثث والاشلاء الممزوجة بالتراب لوجهة مجهولة، والموت يرافقنا في رحلة النزوح، فتارة يطاردنا عبر آلة الحرب الإسرائيلي، وتارة عبر الجوع والعطش، فلقد أصبحت رحلةُ البحث عن طعامٍ صالحٍ للأكل ومياهٍ نظيفة للشرب كابوساً جديداً يضاف إلى قائمة معاناتنا اليومية.

كنت أشعر بالعجز وقلة الحيلة أمام أطفالي وزوجتي الحامل الذين يتضورون جوعاً، ولم تتوقف معاناتنا هنا، بل كان الشتاءُ يزور خيامنا المثقوبة ليلاً مصطحباً معه زخاته الثقيلة على أجسادنا، مع أنه يعلم اننا نرتعش.

كنا كمن يعيش في كوكب آخر، معزولين، منقطعين عن الأخبار، لا نعلم حتى أن هناك خبر يتداول حول انعقاد هدنة مؤقتة مدتها أسبوع.

انتهت وجهة نزوحي برفقة زوجتي "بسمة" وحماتي نحو بيت لعمي في شمال غزة، ومكثنا فيه.

نزح الجميع مرة أخرى الى الجنوب، فلم يدع هذا السفاح الإسرائيلي عنق طفل ولا امرأة ولا شاب ولا عجوز الا وفصلها عن عنقها، كنت أرغب بالنزوح معهم ولكن -حماتي وزوجتي بسمة- رفضوا ذلك، مبررين سبب ذلك أنهم على دراية بالناس والناس تعرفهم، ويمكنهم تدبير أمرهم، لكنهم سينقطعون اذا ما نزحوا نحو الجنوب.

كنت مسالما أنا وزوجتي بسمة وعائلتي، مستقلين لا ننحاز لطرف أو لحزب على آخر، ومع ذلك فإنه قد وقع علينا الظلم بمسأتي "تقديم المساعدات، والسلات الغذائية"، فلم يكن لنا نصيب منها.

كله هذا في كفة، ومعاناتنا لتحصيل الماء في كفة أخرى، كنت أقطع مسافات طويلة لأجلب الماء في مواعين، ثم أصعد بها الى سطح البيت لأملأها في براميل الماء، وكل هذا كان في ظل ليل دامس حيث لا يوجد كهرباء في القطاع.

وفي احدى الأيام صرخت زوجتي بسمة قائلتا: "حان وقت الولادة"، ولم يكن هناك مركبات تقلنا نحو أي مشفى، حتى جاء فرج الله، حيث مر أحد أبناء المدينة -والذي استشهد لاحقاً- في ذات الوقت، يستقل مركبته لجلب الطحين إلى أهله، فركبنا معه وأوصلنا إلى أقرب مشفى.

موعد اقتراب التوأم...

كنّا نعدُ في أيامنا الأخيرة للخروج إلى هذا العالم، وعلى جميع الأحوال فإنه عند خروج الجنين من رحم أمه فإنه يبكي، ولكننا لم نكن نعلم أننا سنشارك أبي وأمي وكل قطاع غزة البكاء، البكاء على ماذا؟ على أنفسنا مثلاً، على أحلامنا، على حياتنا التي سلبتُ منا قبل أوانها!

قرر أبي وأمي العودة الي بيتنا في الشمال، وفي تلك الأثناء بقي والدي وحده يصارعُ المجهول، ينتقل من مشفى الى أخرى باحثاً عن طبيب يولّد أمي قيصريّاً، كانت المشافي في وضعٍ يرثى لها، دماء المصابين تملئ المكان، والعديد من النازحين يفترشون بأجسادهم النحيلة أروقة المستشفيات وخارجها، بينما أبي يتخبط في حيرته، يجوب الاقسام تلو الأخرى، حتى سقطت عينه على مصابٍ ذو بنية عضلية قوية وضخمة، يده مصابة وشبه مبتورة، لم يكن بوسع الطاقم تقديم أي مساعدة له، فهو كحالنا لا توجد إمكانيات او طواقم طبية متخصصة باقية لمثل هذه الحالة، فتملكهُ إحباطٌ مخيف، من كان يتصور ان هذا العملاق المخيف سيتحول الى نملة صغيرة!؟

جاب أبي الأقسام والمستشفيات باحثا عن قابلة، وعندما وجدها أخيرا، بدأت قصة أخرى للبحث عن مخدر أو مسكن من أجل إجراء العملية الجراحية، كان الوقت ينفذ من بين أيدينا، وكانت أمي في وضع صحي حرج، قد تفقد أنفاسها أو تخسر التوأم.

ولحسن الحظ تم العثور على نسب ضئيلة من المخدر، وأجريت العملية، ونجحت، وختم جسد أمي -بسمة- المنهك رحلته، وخرجنا "سيلا وإلياس" لنجد أنفسنا وسط خراب ودمار ومعالم تغيرت ومدن أبيدت، وبين ٤٠ ألف شهيد وأكثر من ١٠٥ ألف جريح.

ولا زالت الحرب مستمرة، ولا زلنا أنا وأخي ننتظر...

بقلم: أسيل محمد
فلسطين / بيت لحم

الحوار بيني وبين التعليم

كيف يولد الحرف من رحم المدرسة؟ وكيف يتحرر معناه من أمام كرسي الجريمة؟ كيف يعيد طالب المدرسة بناء اللغة وتفكيك الأحجية وتحقيق ذاته إزاء هشاشة أسوار التعليم وانحسار المجتمع؟! كيف أشفى من ألم التعليم ومن تلك الشظايا التي تستقر في فكري؟!

انشطار ذاتي وتشظي فكري كان سببه الرئيس هو عطب التعليم المدروس والمُمنهج لخق جيل منطفئ، وغير واعي لحواره الداخلي بينه وبين ذاته.

يجب إعادة تشكيل السرديات التعليمية لكي تجد المدرسة هويتها بنفسها، ثم نجد هويتنا عبرها، ولكني صدقا لا أعلم هل سيتنهي الحوار بيني وبين التعليم؟ أم هل سينتهي التعليم!!

بقلم: نبيل محمد كبها
فلسطين / رام الله - جنين

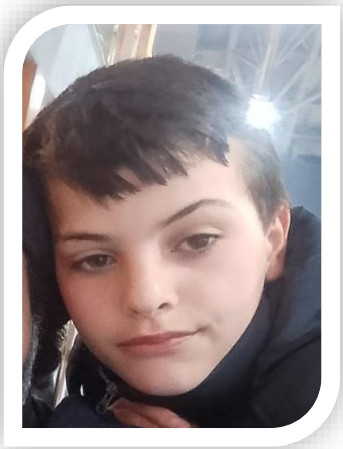

أبي واللّص

كان هناك رجل اسمه صامد، غادر بلده إلى بلد أعجمي كي يعيل أسرته، وقضى سنوات عديدة في بناء منزله، وفي إبان ذلك سطى على ملكه أحد اللصوص.

وفي يوم من الأيام عاد الى بيته بعد سنين شاقة، ليجد ان هناك لص غريب في مطبخه، يسرق حياتهُ والطعام من افوه أطفاله وزوجته، لم يفكر صامد ولو للحظة، قام بالهجوم على اللص وقتله كي يحمي عائلته وبيته وكل ما فيه.

انتشر الخبر في البلدة، ولام الناس صامد، معتبرين أن هذه جريمة، فرد عليهم صامد: "بما اننا مشتركون بهذه الجريمة، هذا يعني أننا لا نعيش حياتنا بل حياة غيرنا، والطبيعي أن تنعتون بذلك، فعندما نلعب بلعب غيرنا، سيأتي غيرنا ليقتص منا بسبب سرقتنا لألعابه".

حكمت المحكمة ببرائة صامد تيمنا بقوله تعالى: إن الله لا يحب الجهر بالسوء إلا من ظلم، وقوله تعالى: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب.

عاد صامد إلى منزله، ولكن كان ابنه غير سعيد، فسأله والده: "لم أنت غير سعيد يا بني؟"، فأجابه: "لقد غادرت يا ابي وتركتني مرة فهذا قرار، وأما ان غادرتها ثانيا فهذا خيار".

فرد الأب: "أنا أخترت الرحيل لكي أتمكن من أن أهيئ لك يا ولدي العيشة الكريمة في عالم أفضل من العالم البائس الذي كنت أعيش فيه".

بقلم: سماح عزام
فلسطين / ضواحي القدس

قالت لي

لقد كان صيفا حارا (قالت لي) ثم اتبعت: "اتمنى قدوم الشتاء بسرعة حتى احتضنك"، ثم قاطعت افكاري سمعي وقالت: "لماذا قلبي لا يشعر باختلاف فصولها؟ لماذا هذا البرد الدائم؟ هل تقلبها خلال ذلك العام ثبت مشاعري تجاهها؟ أم نحن جبل الثلج في ألاسكا الذي نصفه الظاهر ناصع البياض ونصفه الآخر غارق فالمياه؟ هل نحن مستعدين للنجاه؟ هل نستطيع العوم؟".

فجأة يرجع لي سمعي ليصطدم بها تقول لي: "انت لست معي...هل تتعمد ذلك؟"، فقلت: "لها لا...انا فقط معك تماما مثلك".

بقلم: علي نبيل كبها
فلسطين / جنين

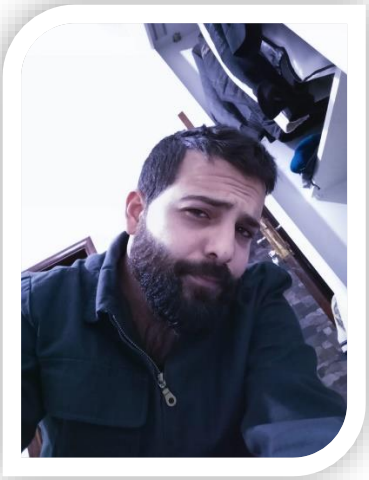

في النهاية:

لقد علموني أيها السياسي في المدرسة أشياء كثيرة، فأعطوني ذكريات لوطن لم أره بعد، وولاء لحاكم لا يمكنني أن أخدمه، وحبّ لطفل فلسطيني لم أستطع أن أنقذه من أنياب هذا المسخ اللعين التي أنشبها في جسده ولحمه!!

المفكر الإسلامي

محمد نبيل كبها

الفهرس

إهداء.....٤

شكر خاص.....٦

قصص واقعية من حياتي.....٧

الإبتسامات الحقيرة.....٨

رأيت الأرض ٩

شيخكم الفاضل.....١٠

أنا المسيح.....١١

العاتول أوبتيموس.....١٣

ماريا والملحد.....١٥

راتبي الأول.....١٧

سائق التكسي.....١٩

ابني عبودة.....٢١

أنا والسياسي.....٢٣

صرخة ماكس.....٢٥

الفيل العملاق.....٣٠

قصص خيالية من وحي خيالي.....٣٥

صوتي أقوى.....٣٦

فنجان القهوة.....٣٧

الكلب الصهيوني.....٣٨

قانوني أنا.....٣٩

أنا الحرامي.....٤٠

نادلة المطعم.....٤١

نقود الشحاد.....٤٢

فتاة على الرصيف.....٤٣

مدير الشركة.....٤٤

في الثالث والتسعون.....٤٥
قبلة أورفيوس و أوريديس.....٤٦
ئيل في الطريق.....٤٨
الأخيار والجدار.....50
رأيت العنكبوت.....52
أنا آسف.....٥٤
الملاكم الورقي.....٥٦
جنة العنيد.....٥٩
الشيطانة المؤمنة.....٦٣
قصص واقعية كان لها الأثر في حياتي.....٧٣
العمالقة والملعقة.....٧٤
أنا لست رقما.....٧٦
الكلب النازح.....٧٧
قصص تشاركية.....٧٨
حسرة في قلبي.....٧٩
نهاية مزارع.....٨٢
رسالة في مكتبتي.....٨٤
جنازة في مهب الريح.....٨٥
نوستاليجا الحب.....٨٦
كنت أحلم.....٨٧
أنا وأخي.....٩٢
حوار بيني وبين التعليم.....٩٦
أبي واللص.....٩٧
قالت لي.....٩٨
في النهاية ٩٩